عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

حينَ أَضَاءَتِ الْحُجْرَةُ وعْيَ الأُمَّةِ

عبقرية الفقه، وشجاعة الموقف، وشفافية الروح

تأليف: رَدَّاد السَّلَّامِيُّ

عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

حِينَ أَضَاءَتِ الْحُجْرَةُ وَعْيَ الأُمَّةِ

عبقرية الفقه، وشجاعة الموقف، وشفافية الروح

تأليف : رَدَّاد السَّلَّامِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْمُقَدِّمَةُ الْمَنْهَجِيَّةُ

كَيْفَ نَقْرَأُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؟

ليست كل الشخصيات التي تعبر التاريخ محكومةً بزمانها؛ فمن الناس من يولد في قرن، ثم يبقى معنىً عابرًا للقرون، كلما ظن الناس أنهم أحاطوا به انفتح لهم منه أفق جديد، وكلما استدعوه شاهدًا على سؤال من أسئلتهم اكتشفوا أنه أكبر من السؤال، وأوسع من الإجابة، وأشد امتناعًا على الاختزال. ومن تلك الشخصيات أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها؛ المرأة التي لم تكن حياتها خبرًا ملحقًا بالسيرة النبوية، بل كانت فصلًا من فصولها الكبرى، ولم تكن حجرتها مكانًا صغيرًا على هامش المدينة، بل كانت إحدى النوافذ التي أبصرت الأمة من خلالها رسولها ﷺ إنسانًا ونبيًّا ومعلّمًا وزوجًا وعابدًا وقائدًا.

إن الاقتراب من عائشة رضي الله عنها ليس اقترابًا من امرأة عاشت إلى جوار النبي ﷺ فحفظت شيئًا من حديثه ثم نقلته إلى الناس؛ فهذا وصف صحيح، لكنه أصغر من الحقيقة. إننا نقترب من عقلٍ تكون في الضوء المباشر للوحي، ومن ذاكرةٍ استودعتها العناية الإلهية دقائق من حياة النبوة لم يكن يستطيع أن يراها غيرها، ومن روحٍ عاشت الحب والغيرة والفرح والألم والفقد، ثم تجاوزت تجربتها الخاصة لتصبح أمًّا معرفيةً للأمة، تعلم رجالها

ونساءها، وتراجع علماءها، وتصحح فهم رواتها، وتفتح أمام الفقه منافذ لم تكن تنفتح بمجرد سماع النص وحفظ ألفاظه.

كانت عائشة قريبةً من الوحي، لكنها لم تكن نبيّةً ولا معصومة؛ وكانت عالمةً كبيرة، لكنها لم تخرج من حدود الطبيعة البشرية؛ وكانت أمًّا للمؤمنين، لكن أمومتها لم تُلغِ فرديتها، ولم تطمس حرارة عاطفتها، ولم تمنعها من الاجتهاد أو الخطأ أو المراجعة. وهنا تحديدًا تتجلى عظمتها: لم تكن عظمتها في أنها غادرت إنسانيتها، بل في أن النبوة ربّت هذه الإنسانية، وهذّبتها، ووسعت طاقتها على الفهم، حتى صارت مشاعرها نفسها أبوابًا للمعرفة، وصارت أسئلتها جسورًا إلى الأحكام، وصارت غيرتها مناسبةً لبيان، وذاكرتها مستودعًا للتشريع، وحجرتها امتدادًا لمدرسة رسول الله ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

ولذلك يخطئ من يقرأ عائشة من نافذة واحدة. يخطئ من لا يرى فيها إلا راويةً للحديث؛ لأن الراوي قد يحمل الخبر، أما هي فكانت تفحصه، وتفهم سياقه، وتقابل بعضه ببعض، وترد ما أُسيء فهمه إلى محكم القرآن، وتسأل عن العلة، وتلتقط الفارق بين ما قاله النبي ﷺ تشريعًا عامًّا وما فعله لحالٍ خاصة، وبين اللفظ كما سُمع والمعنى كما ينبغي أن يُفهم. لقد كانت جزءًا أصيلًا من ولادة العقل الفقهي في الإسلام، عقلٍ لا يخاصم النص، بل يقترب منه بأدوات أعمق من الحفظ، ويعلم أن الوفاء للحديث لا يكون بترديد كلماته وحدها، وإنما بحراسة مراده من سوء الفهم.

ويخطئ من يراها عقلًا علميًّا مجردًا من حرارة الروح؛ لأن العلم عند عائشة لم يكن زينةً ذهنية، بل كان ثمرة القرب من الله، وكانت خشيتها هي السر الذي يحرس معرفتها من الغرور. لم تكن حجرتها عامرةً بالأسئلة والطلاب فحسب؛ بل كانت عامرةً بالصلاة والذكر والتلاوة والبكاء. وحين كانت تفتي الناس لم تكن تفصل الحكم عن المصير، ولا المعرفة عن مراقبة الله، ولا بلاغة الجواب عن ثقل الأمانة. كان قلبها هو المحراب الخفي لعقلها، وكانت عبادتها تمنح كلمتها ذلك النقاء الذي يجعل العلم مسؤوليةً قبل أن يكون منزلة.

ويخطئ من يحبسها في مشهد الفتنة، ثم يجعل ذلك المشهد مفتاحًا وحيدًا لكل حياتها؛ فالشخصية التي امتدت عقودًا من العلم والتعليم والعبادة والإصلاح لا يجوز أن تُختصر في أيام مضطربة، كما لا يجوز أن تُمحى تلك الأيام من سيرتها خوفًا من الأسئلة التي تثيرها. لقد دخلت عائشة رضي الله عنها المجال العام وهي تحمل تصورها لمسؤولية أم المؤمنين تجاه الأمة، واجتهدت في زمنٍ اختلطت فيه المقاصد الصادقة بالوقائع المنفلتة، وكانت تجربتها شاهدًا على شجاعة الموقف، كما كانت شاهدًا على أن حسن القصد لا يعصم صاحبه من قسوة المآلات. والإنصاف لا يكون بتحويل اجتهادها إلى عصمة، ولا بتحويل خطئها أو اختلاف الناس في تقديره إلى تهمة تهدم فضلها؛ بل بوضع الحدث في سياقه، ورؤية الإنسان المؤمن وهو يتحرك بين الواجب كما يراه والنتيجة التي قد تفلت من يديه.

عائشة أكبر من أن تكون مادةً في خصومة مذهبية، وأرفع من أن تُستدعى لتزيين شعار معاصر. ليست نموذجًا يُنتزع من زمنه ليُكره على النطق بمصطلحات لم يعرفها، وليست صورةً ساكنةً تُخفى إنسانيتها حتى لا يقترب منها السؤال. إنها امرأة صنعتها تربية النبوة، ثم شاركت بعلمها وعقلها وضميرها في صناعة وعي الأمة. ومن الظلم لها أن يُحتفى بحضورها العام مع إهمال مرجعيتها الإيمانية، أو أن يُحتفى بتقواها مع إسكات عقلها الناقد، أو أن تُمدح فصاحتها ويُهمل مشروعها العلمي، أو أن تُذكر أمومتها للمؤمنين بطريقة تطمس فرادة شخصيتها وقوة حضورها.

لقد جمعت عائشة بين أشياء يظن العقل الكسول أنها لا تجتمع: كانت شديدة الذكاء، شديدة العبادة؛ قوية الحجة، رقيقة العاطفة؛ واسعة العلم، حاضرة الإنسانية؛ جريئة في الاستدراك، عظيمة التوقير لرسول الله ﷺ؛ قادرة على التأثير في الشأن العام، ثم قادرة على الانفراد في محرابها حتى لا يبقى بينها وبين الله إلا خوفها ورجاؤها. ولم تكن هذه الصفات جزرًا متباعدةً في شخصيتها، بل كان بعضها يمد بعضًا: فقهها ابن خشيتها، وشجاعتها بنت يقينها، وفصاحتها خادمة معناها، وغيرتها متصلة بحبها، وحضورها في الأمة امتداد لشعورها بأنها تحمل شيئًا من ميراث النبوة لا يجوز كتمانه.

ومن هنا لا يريد هذا الكتاب أن يعيد ترتيب أخبار عائشة بحسب السنوات؛ متى ولدت، ومتى دخلت بيت النبي ﷺ، ومتى روت، ومتى خرجت، ومتى ماتت. إن الترتيب الزمني ضروري لفهم الوقائع، لكنه لا يكفي لاكتشاف

الإنسان. هدفنا أن ننفذ من الخبر إلى الدلالة، ومن الواقعة إلى البنية الداخلية التي صنعتها، ومن كثرة الروايات إلى الخيط الجامع بينها: كيف تكوّن هذا العقل؟ كيف كان قربها من النبي ﷺ منهجًا في التعلم؟ كيف تحولت الحجرة الصغيرة إلى فضاء معرفي واسع؟ كيف اجتمع فيها الناقد والعابد، والمعلم والإنسان، والأم والمجتهد؟ وكيف استطاعت امرأة واحدة أن تحفظ للأمة من حياة نبيها ما لم يكن في مقدور الجموع أن تحفظه؟

وسنقرأ مروياتها لا بوصفها أرقامًا في كتب الحديث، بل نوافذ على نوع المعرفة التي حملتها. فهناك فرق بين من يروي قولًا سمعه في مجلس عام، ومن عاش إلى جوار صاحب الرسالة، فرأى عبادته إذا خلا، ورحمته إذا اقترب، وعدله إذا غضب، وابتسامته داخل بيته، وصبره على أذى الناس، وطريقته في محاورة أهله، وتدرج الوحي في تربية النفوس. لقد منحت عائشة الأمة معرفةً بالنبي ﷺ من الداخل؛ لا داخل البيت المكاني فحسب، بل داخل التجربة الإنسانية التي نزل فيها الوحي وأعاد بناء الحياة.

وسنقرأ استدراكاتها بوصفها ملامح منهج، لا حوادث متفرقة غايتها إثبات أنها خالفت فلانًا أو صححت لفلان. كان وراء كثير من استدراكاتها وعيٌ بوحدة القرآن، وحساسيةٌ تجاه ما قد يوهم معنى لا يليق بعدل الله أو هدي رسوله ﷺ، ومعرفةٌ بسياقات الأقوال والأفعال، وقدرةٌ على التفريق بين الخبر كما وقع والخبر كما اختصرته الذاكرة. ولهذا لم تكن مراجعاتها انتصارًا للذات،

بل حراسةً للمعنى؛ ولم تكن جرأتها على العلماء تقليلًا من فضلهم، بل اعترافًا بأن هيبة الأشخاص لا ينبغي أن تحجب السؤال عن وجه الصواب.

وسنقرأ محنتها في حادثة الإفك لا باعتبارها قصة ألم شخصي وحده، بل باعتبارها لحظةً كبرى تكشف كيف يمكن للكلمة أن تحاصر إنسانًا بريئًا، وكيف يُمتحن المجتمع حين تتحول الظنون إلى أحاديث، وكيف جاء القرآن لا ليبرئ امرأةً فحسب، بل ليؤسس أخلاقًا كاملةً في تلقي الأخبار وصيانة الأعراض ومقاومة الشائعة. في تلك المحنة لم تكن عائشة موضوعًا للحدث فقط؛ لقد صارت قصتها تعليمًا خالدًا للأمة، وصار الألم الذي مر بقلبها سورًا أخلاقيًّا يحمي بيوت المؤمنين إلى قيام الساعة.

وسنقف أمام حضورها السياسي بضمير المؤرخ وأدب المؤمن: لا نقرأ الوقائع بأحقادٍ وُلدت بعدها، ولا نرفع الأشخاص فوق بشريتهم، ولا نسمح للخلاف أن يأكل فضائل السابقين. سنحاول فهم الخوف الذي ملأ ذلك الزمن، واضطراب الأخبار، وتزاحم المقاصد، وصعوبة القرار حين لا تكون النتائج مرئية. وسنرى كيف يمكن للإنسان العظيم أن يجتهد تحت ضغط المسؤولية، وأن يجد نفسه داخل حدث صار أكبر من إرادته، ثم يبقى فضله محفوظًا، ويبقى باب النقد التاريخي مفتوحًا دون سبٍّ أو تشفٍّ أو إسقاط لحرمة أم المؤمنين.

أما عبادتها وزهدها وصدقتها، فلن نجعلها زينةً عاطفيةً تُضاف في نهاية الكتاب لتليين صورة العالمة القوية؛ لأن تلك العبادة هي مركز الصورة كلها.

المرأة التي استطاعت أن تناقش، وتعلّم، وتراجع، وتواجه، لم تستمد تماسكها من ذكائها وحده؛ فالذكاء إذا انفصل عن التقوى قد يصير حيلةً متفوقة، والمعرفة إذا خلت من الخشية قد تتحول إلى سلطان جديد للنفس. لكن عائشة كانت تعود من ضجيج الناس إلى الله، وتضع العلم والذكرى والمحنة والمكانة عند باب العبودية، وهناك كانت تسترد ميزانها الداخلي.

هذا كتاب عن امرأةٍ كان بيتها ضيق المساحة عظيم الأثر؛ نام فيه رسول الله ﷺ، ونزل فيه الوحي، وتعلّمت فيه فتاة شابة كيف تصغي وتسأل وتحفظ وتفهم، ثم بقي بعد رحيله مجلسًا تقصده عقول الأمة. ومن وراء ستر تلك الحجرة خرجت أجوبة في الطهارة والصلاة والصيام والحج والأسرة والأخلاق والسيرة والطب والنفس واللغة؛ حتى بدا المكان الصغير أوسع من مدارس كثيرة أقيمت بعده، لأن سعته لم تكن بالجدران، بل بالنور الذي مر فيه والعقل الذي وعاه.

إننا لا نكتب عن عائشة لنزيد مناقب إلى مناقبها، فهي في غنى عن مديحنا؛ بل نكتب لنستعيد ما خسرناه حين جزّأنا صورتها. نريد أن نرى العالمة في العابدة، والعابدة في المرأة، والمرأة في أم المؤمنين، وأم المؤمنين في قلب الأمة، وأن نفهم كيف استطاع الوحي أن يصنع من حياة إنسانية بكل أفراحها وآلامها مدرسةً ممتدةً في الزمن.

سنطرق باب حجرتها بأدب، ونصغي طويلًا قبل أن نتكلم؛ فلعلنا إذا أحسنّا الإصغاء رأينا أن تلك الحجرة لم تُغلق يوم ووريت عائشة رضي الله عنها في تراب

البقيع، وأن صوتها ما يزال يعلّم الأمة أن حفظ الدين ليس حفظ ألفاظه وحدها، بل حفظ عدله ورحمته ومقاصده ونوره؛ وأن العقل لا يبتعد عن الإيمان حين يسأل، بل قد يكون السؤال الصادق صورةً من صور الوفاء للوحي؛ وأن المرأة التي ربّاها النبي ﷺ لم تكن ظلًّا صامتًا في بيت النبوة، بل كانت عقلًا مستضيئًا بنوره، وقلبًا يحمل ميراثه، وصوتًا ظل يتردد في ضمير الإسلام قرونًا طويلة:

هنا مرّ رسول الله ﷺ، وهنا عاشت عائشة، وهنا صارت الحجرة أوسع من العالم.

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

طُفُولَةٌ كَانَتْ تُعَدُّ لِمِيرَاثِ النُّبُوَّةِ

لم تبدأ قصة عائشة رضي الله عنها يوم دخلت بيت رسول الله ﷺ، ولم يبدأ تكوينها حين جلست بين يديه تسأله وتراجعه وتحفظ عنه؛ فقد كان وراء ذلك العقل المتوقد تاريخٌ صامت من الإعداد، وكانت وراء تلك الذاكرة التي حملت دقائق النبوة طفولةٌ نمت في بيتٍ سبقت إليه العقيدة، واستيقظ فيه الضمير قبل أن تستيقظ المدينة كلها على أفق الرسالة.

ولدت عائشة في بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والبيت في حياة الإنسان ليس جدرانًا تحيط بطفولته فحسب، بل هو اللغة الأولى التي يتعلم بها تفسير الوجود، والمناخ الخفي الذي تتشكل فيه معاييره قبل أن يعرف أسماء المعايير، والمرآة التي يرى فيها الحق والباطل قبل أن يقدر على بناء البراهين. وقد كان بيت أبي بكر من البيوت النادرة التي لم يدخلها الإسلام ضيفًا متأخرًا، بل دخلها في الفجر الأول، حين كان الإيمان مخاطرةً، والانتماء إلى محمد ﷺ خروجًا من الأمان الاجتماعي إلى المجهول، وحين لم تكن للدعوة دولة تحميها، ولا كثرة تستر ضعفها، ولا تاريخ سابق يطمئن المترددين إلى مستقبلها.

كان الإسلام في ذلك البيت اختيارًا مبكرًا مكلفًا، لا ميراثًا اجتماعيًّا مريحًا. ولهذا نشأت عائشة وهي ترى الإيمان موقفًا قبل أن تراه هوية، وتراه تضحيةً قبل أن تراه مجدًا، وتراه انحيازًا للحقيقة حين لا تكون للحقيقة قوة

ظاهرة تدافع عنها. وحين قالت فيما رواه البخاري: «لم أعقل أبويَّ قط إلا وهما يدينان الدين»، لم تكن تقدم معلومةً عابرةً عن أسرتها، بل كانت تضع أيدينا على المفتاح الأول لشخصيتها: إنها لم تفتح عينيها على بيت يتردد بين الجاهلية والإسلام، وإنما فتحت وعيها على أبٍ صدَّق حين كذب الناس، وأمٍّ دخل الإيمان في نسيج بيتها، وأسرةٍ ارتبط مصيرها بمصير الرسالة منذ أيامها الأولى.

إن الطفل لا يتلقى القيم من الكلمات وحدها؛ إنه يلتقطها من هيئة الكبار حين يخافون، ومن نبرة أصواتهم حين يتحدثون عن الحق، ومن الأشياء التي يضحون بها، ومن الأشخاص الذين يحبونهم، ومن الآلام التي يحتملونها دون أن يبيعوا مبادئهم. وعائشة الصغيرة لم تكن تحتاج إلى درس نظري في معنى الصديقية؛ كان أبو بكر يمشي أمامها تفسيرًا حيًّا لها. كانت ترى رجلًا يعرف قومه ويعرف أثمان المواقف، ثم لا يمنعه علمه بحجم الخطر من أن يضع نفسه وماله ومكانته في طريق الرسالة. وكانت تسمع اسم محمد ﷺ في بيتها لا بوصفه رجلًا عظيمًا من رجال قريش، بل بوصفه رسول الله الذي أصبحت محبته ميزانًا جديدًا لكل حب، وأصبح تصديقه امتحانًا لكل عقل وضمير.

ومن الصعب أن نعرف اللحظة الدقيقة التي بدأ فيها عقل عائشة يلتقط ما يدور حوله، لكن الأخبار التي روتها عن طفولتها تكشف أن الذاكرة فيها استيقظت مبكرًا، وأن القرآن دخل عالمها وهي ما تزال في زمن اللعب. فقد ذكرت أن قول الله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ نزل

بمكة وهي جارية تلعب. وما أعمق هذه الصورة: طفلة تلعب في طرف المشهد، والقرآن يتنزل في طرفه الآخر، ثم يلتقي اللعب والوحي في ذاكرة واحدة لا تنسى بعد عشرات السنين متى سمعت الآية وأين كانت.

لم تكن تدرك يومئذ أن الآيات التي تمر على سمعها ستصبح بعد ذلك مفاتيح لفهم السنة، وأنها ستقف يومًا أمام بعض ما يرويه الناس فترده إلى محكم القرآن، وتقول بعقلٍ تكون طويلًا في ظله: كيف يقال هذا وكتاب الله يقول كذا؟ لكنها كانت منذ طفولتها تخزن النغم والمعنى والمشهد. كان القرآن يدخل ذاكرتها قبل أن تعرف أنها ستصبح من أفقه الناس في دلالاته، وكانت الساعة التي سمعت وعيدها وهي تلعب تؤسس في أعماقها لذلك الحضور الأخروي الذي سيظهر لاحقًا في عبادتها وخشيتها وزهدها.

هكذا تصنع العناية الإلهية أدواتها في صمت؛ تضع الآية في ذاكرة طفلة، وتدع الزمن يكشف لماذا حُفظت، وتمنح عينًا صغيرة القدرة على التقاط مشهد لا يبدو يومئذ إلا جزءًا من الحياة اليومية، ثم يصبح بعد عقود شاهدًا من شواهد التاريخ. فليس كل من حضر البدايات استطاع أن يحفظها، وليس كل من حفظ الوقائع استطاع أن ينقل روحها، لكن عائشة امتلكت منذ طفولتها تلك الذاكرة التي لا تحتفظ بالكلمات مجردةً، بل تحتفظ بالمكان والانفعال والحركة والوجوه.

وكان رسول الله ﷺ حاضرًا في بيت أبي بكر حضورًا متكررًا. تروي عائشة أنه لم يكن يمر يوم إلا ويأتيهم فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار، بكرةً وعشيًّا. إن

هذه الزيارات لم تكن بالنسبة إلى الطفلة أحداثًا سياسيةً تعني أن قائد الدعوة يتشاور مع أقرب أصحابه، كانت جزءًا من إيقاع البيت نفسه. كان النبي ﷺ يدخل ويخرج، ويجلس إلى أبيها، وتتردد كلماته في المكان الذي تنمو فيه، فتتكون الألفة قبل المصاهرة، ويصبح حضوره في وجدانها أقدم من قدرتها على تحليل دلالته.

ثمة فرق بين من يرى العالم من بعيد، ومن يتكون وعيه في المجال الإنساني القريب من صانعي الحدث. لقد نشأت عائشة في المسافة الأقرب إلى مركز الرسالة: لا في المسجد وحده، حيث يلتقي الناس بالنبي ﷺ معلمًا وخطيبًا وقائدًا، بل في بيت الصديق، حيث كانت الدعوة تظهر بأعبائها وأسرارها ومخاوفها وآمالها. وفي ذلك البيت سمعت أخبار المستضعفين، واضطراب قريش، وخطر المطاردة، وآيات القرآن الجديدة، وأسماء الداخلين في الإسلام والخارجين لمقاومة أهله. كانت مكة كلها تمر داخل بيتها في صورة حديث، أو زائر، أو خوف، أو دعاء، أو خبر ينتظر الجميع عاقبته.

ولأن أبا بكر كان رقيق القلب، سريع الدمعة عند قراءة القرآن، فقد عرفت عائشة منذ الصغر أن القوة لا تعني جفاف الروح. كان أبوها الرجل الذي ثبت في المواطن التي اضطربت فيها القلوب، لكنه كان إذا قرأ القرآن لا يملك عينيه. وحفظت الأسرة قصته حين اتخذ موضعًا يصلي فيه ويقرأ القرآن، فكان نساء المشركين وأبناؤهم يقفون ينظرون إليه ويعجبون، حتى خافت قريش من أثر بكائه وقراءته في القلوب.

في هذا المشهد المبكر معنى عميق في تكوين عائشة: لقد نشأت على أن الحجة ليست كلمات منطقية وحدها، وأن القرآن لا يدخل الناس من بوابة البرهان الذهني فحسب، بل من صدق الإنسان الذي يحمله، ومن دمعة القارئ الذي يبدو كأن الآيات تنزل على قلبه في اللحظة ذاتها. وستجمع هي لاحقًا بين الدقة العقلية وشدة التأثر، تستدرك بالحجة، ثم تقف عند آية ترددها ويبكي لها قلبها. كأن شخصية أبي بكر قد تركت في تكوينها هذا الاجتماع النادر: صلابة الموقف ورقة الوجدان.

ولم يكن أبو بكر رجل إيمان مجردًا من معرفة الناس؛ فقد كان من أعلم قريش بأنسابها وأخبارها، عارفًا بطبائع الرجال ومنازل القبائل، حسن المجالسة، مألوفًا عند قومه. وفي مثل هذا البيت تسمع الطفلة أسماء القبائل، وأشعار العرب، وأيامهم، ووجوه الاختلاف بينهم، وتتعلم أن الكلام ليس أصواتًا فقط، بل أنساب وسياقات وذاكرة جمعية. وربما كانت موسوعية عائشة اللاحقة — في الشعر والنسب وأخبار العرب — امتدادًا لتلك البيئة التي لم يكن العلم فيها كتابًا مفتوحًا على طاولة، بل حياةً متداولةً في المجلس والزيارة والحديث.

ولم يكن البيت يتكون من أبي بكر وحده؛ كانت أم رومان رضي الله عنها هناك، تحمل أعباء الأسرة في زمن لا تكاد الدعوة تترك لأهلها فسحةً من السكون، وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها تمثل للأخت الصغيرة نموذجًا آخر من نماذج الفاعلية والشجاعة. لم تكن النساء في بيت الصديق

كائنات على هامش الحدث، يستمعن إلى الرجال وهم يصنعون التاريخ؛ كن داخل الأمانة نفسها، يعرفن الخطر، ويحفظن السر، ويتحملن التبعة، ويشاركن بما يستطعن في حماية الدعوة.

ومن هذا البيت ستخرج أسماء ذات النطاقين تحمل الطعام في رحلة الهجرة، وستبقى الأسرة في مكة تحت عين قريش وأسئلتها وغضبها، وسيضرب أبو جهل أسماء لأنها لم تدله على أبيها، وستتعلم عائشة أن القرب من الدعوة لا يمنح أصحابه امتيازًا دنيويًّا، بل يحمّلهم أولًا نصيبهم من الخوف والانتظار والتضحية. لم تكن البطولة في ذلك البيت خطابًا يروى للصغار، بل كانت أمًّا تكتم قلقها، وأختًا تحفظ السر، وأبًا يغادر نحو المجهول، وبيتًا يتعلم كيف يحمل فراغ الغائبين دون أن يفضح طريقهم.

الدَّمْعَةُ الَّتِي حَفِظَتْهَا الطِّفْلَةُ

ومن أجمل ما حفظته عائشة من فجر الهجرة ذلك المشهد الذي دخل فيه رسول الله ﷺ بيت أبي بكر في ساعة لم يكن يأتيهم فيها عادةً. جاء متقنعًا، وعرف أبو بكر أن وراء مجيئه أمرًا عظيمًا. طلب النبي ﷺ أن يُخرج من في البيت، فقال أبو بكر إنما هم أهله، فأخبره رسول الله ﷺ أنه قد أُذن له في الخروج.

قال أبو بكر، كأن قلبه كله اندفع في السؤال: الصحبة يا رسول الله؟

قال ﷺ: «الصحبة».

وهنا رأت عائشة شيئًا لم تكن تعرف أن الفرح يستطيع أن يصنعه. رأت أباها يبكي، ثم قالت وهي تستعيد المشهد بعد سنين: «فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ».

لم تحفظ عائشة قرار الهجرة وحده؛ حفظت دمعة أبيها.

وهذه العبارة القصيرة تكشف عن طبيعة مبكرة في وعيها: إنها لا ترى الأحداث الكبرى من عناوينها وحدها، بل تلتقط الإنسان الكامن في داخلها. كان يمكن أن تقول: أُذن للنبي ﷺ بالهجرة، وصحب أبي رسول الله. لكنها توقفت عند الدمع، لأن ما هزها وهي طفلة لم يكن الخبر وحده، بل اكتشافها أن القلب قد يمتلئ بالفرح حتى يعجز عن حمله فيتحول الفرح إلى بكاء.

لقد رأت الصديقية في أكثر صورها صفاءً: لم يبك أبو بكر لأن الطريق آمن، فالطريق كان محاطًا بالمطاردة والموت، ولم يبك لأنه سينجو بماله ونفسه، بل لأنه اختير ليكون مع رسول الله ﷺ في الخطر. كان الفرح عنده ليس انفراجًا من التضحية، بل قبولًا لمزيد منها في صحبة من يحب. وحين اختزنت عائشة هذه الدمعة في ذاكرتها، كانت تختزن معيارًا كاملًا للحب: أن يبلغ الحب بالإنسان حدًّا يفرح فيه بالتعب إذا كان التعب مع محبوبه، ويرى الخطر منحةً إذا قربه من رسالته.

ربما لم تكن عائشة يومها قادرةً على تسمية كل هذه المعاني، لكن المشاهد العظيمة تعمل في النفس قبل أن تقدر النفس على شرحها. تنزل إلى طبقاتها العميقة، وتعيد تشكيل معنى الوفاء والشجاعة والفرح، ثم تظهر آثارها بعد سنين

في المواقف والكلمات. لقد كبرت عائشة وهي تعرف من بيتها أن رسول الله ﷺ ليس شخصًا يضاف إلى الحياة، بل هو المركز الذي يعاد ترتيب الحياة كلها من أجله.

وفي ساعات الإعداد للهجرة تحرك البيت كله. جُهزت الراحلتان، وأُعد الطعام، وشقت أسماء نطاقها لتربط به السفرة، وحمل كل فرد نصيبه من السر والمسؤولية. أما عائشة فقد كانت العين التي ستروي لنا بعد ذلك تفاصيل المشهد، كأن الطفلة لم تكن على هامش الحدث، بل كانت ذاكرةً صغيرةً أودع التاريخ نفسه فيها، ثم مضى مطمئنًا إلى أنها ستفتح خزانتها يوم تحتاج الأمة إلى معرفة ما حدث.

ولما خرج النبي ﷺ وأبو بكر، لم تنتهِ الهجرة بالنسبة إلى الأسرة، بدأت مرحلة الانتظار والخوف. جاء جدها أبو قحافة، وكان قد ذهب بصره، فعبّر عن خشيته من أن يكون أبو بكر قد ترك أبناءه بلا مال، فوضعت أسماء أحجارًا في كوة البيت وغطتها بثوب، ثم أخذت بيد جدها ليلمسها ويظن أن أباها ترك لهم مالًا. كان البيت يدير الخوف بالحكمة، ويحمي صورة الغائب، ويمنع القلق من أن يتحول انهيارًا.

في مثل هذه التفاصيل نشأت عائشة على أن المرأة ليست مجرد متلقية لنتائج القرارات الكبرى، إنها شريكة في احتمال تبعاتها. فالرجال خرجوا في طريق الهجرة، لكن النساء بقين في مواجهة الأسئلة والتهديد والفراغ، يحفظن السر ويثبتن البيت. ومن هذه البيئة سيتكون حضور عائشة اللاحق: لن ترى

مسؤولية المرأة محصورةً في الانزواء عن قضايا الأمة، لأنها رأت منذ طفولتها أن بيتًا كاملًا دخل التاريخ برجاله ونسائه، وأن العقيدة حين تدخل الحياة لا تكتفي بطرف منها.

الطِّفْلَةُ الَّتِي كَانَتْ تَلْعَبُ وَتَحْفَظُ

على أن عظمة البيئة التي نشأت فيها لم تسلبها طفولتها. كانت تلعب كما يلعب الصغار، وكانت لها لعبها وصويحباتها، ولم يعاملها رسول الله ﷺ بعد ذلك كما لو أن النضج العلمي يقتضي قتل الطفلة الكامنة فيها. وهذه واحدة من ألطف حقائق تكوينها: أن العبقرية لم تنشأ من قمع طبيعتها، بل من رعايتها؛ وأن الشخصية العلمية الكبرى لم تُصنع بإطفاء البهجة والخيال، بل بترك الروح تنمو في توازن.

إننا نخطئ حين نتصور أن كل إنسان عظيم لا بد أن يكون في طفولته شيخًا صغيرًا، عابسًا عن اللعب، منقطعًا عن فرح أقرانه. لقد كانت عائشة تلعب، لكن عينها كانت تحفظ؛ وكانت تفرح، لكن ذاكرتها كانت تبني أرشيفها؛ وكانت طفولتها تتحرك على سطح الحياة، بينما كانت في أعماقها ملكات نادرة تتكون في صمت. لم يكن اللعب نقيضًا للاستعداد العلمي، بل كان جزءًا من نمو النفس التي ستجمع لاحقًا بين حيوية الحضور ودقة التفكير.

ولعل بقاء شيء من روح الطفولة في شخصيتها هو الذي منحها تلك التلقائية الصادقة في السؤال، وذلك النفور من التصنع، وتلك القدرة على التعبير المباشر عما تشعر به. فالطفل يسأل لأنه لم يتعلم بعد أن يجعل هيبة السائد حاجزًا بينه

وبين الحقيقة، وعائشة احتفظت في علمها بشجاعة السؤال الأولى؛ لم تكن تمر على ما يشكل عليها مجاملةً، ولم تكن تستحيي من طلب البيان، ولم تعتبر السؤال نقصًا في الإيمان، بل طريقًا إلى كمال الفهم.

لقد كانت تسأل النبي ﷺ عن المعاني التي ربما سمعها غيرها وسكت عنها. وحين تسمع خبرًا يحتاج إلى قيد، طلبت القيد؛ وحين ترى فعلًا يمكن أن يُفهم على أكثر من وجه، أرادت وجهه الصحيح؛ وحين ينزل القرآن، لم تكتف بجرس الآيات، بل سألت عن الإنسان الذي تخاطبه، والحال التي نزلت فيها، والدلالة التي تتجاوز الواقعة إلى الحكم. وستظهر هذه الروح في حياتها العلمية كلها: حيوية عقل لم تخنقه الهيبة، وأدب متعلم لم يمنعه الأدب من الاستفهام.

وكانت الذاكرة التي تحفظ الآيات والمشاهد قادرةً كذلك على حفظ اللغة. نشأت في قريش، وفي بيت أبي بكر خاصةً، تسمع العربية في صفائها الأول، والشعر في مجالس الناس، والأمثال والأخبار والأنساب. ولم تكن فصاحتها اللاحقة صناعةً لفظيةً منفصلةً عن حياتها؛ كانت حصيلة أذنٍ تفتحت مبكرًا على البيان، وعقلٍ تعلّم أن الفارق بين كلمة وكلمة قد يحمل فارقًا بين حكمين ومعنيين.

ولهذا كان علمها باللغة جزءًا من فقهها، لا زينةً على هامشه. فالنص الذي نزل بلسان عربي مبين يحتاج إلى عقل يحس بظلال الألفاظ، ويعرف مواقع الكلام، ويدرك ما يحتمله التعبير وما لا يحتمله. وقد كان الشعر والأنساب

وأيام العرب في ثقافة ذلك العصر خزائن للغة والذاكرة، ومن نشأ قريبًا منها امتلك أدوات لفهم الخطاب لا تمنحها المعرفة السطحية.

بَيْتٌ يُرَبِّي عَلَى أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ أَغْلَى

لم تكن تربية عائشة برنامجًا تعليميًّا مكتوبًا، لكنها كانت أعمق من البرامج؛ لأنها كانت تربيةً بالمناخ. كان أبو بكر يضع أمامها كل يوم جوابًا عمليًّا عن السؤال الأكبر: ماذا يفعل الإنسان حين تتعارض سلامته مع يقينه؟ وكانت أم رومان تعلمها بصمتها وثباتها كيف يحفظ البيت إيمانه في أزمنة الخوف. وكانت أسماء تريها أن الشجاعة ليست صفةً ذكورية، وأن المرأة تستطيع أن تحفظ سر الرسالة، وتواجه الأذى، وتحمل الطعام، وتدبر الموقف، وتبقى ثابتةً حين يريد الخوف أن يبدد تماسكها.

وكان رسول الله ﷺ يمر بالبيت بكرةً وعشيًّا، فتتصل الأسرة بمصدر الوحي اتصالًا يوميًّا. وما من شك في أن هذا القرب صنع في وعي عائشة إحساسًا مبكرًا بأن الدين ليس أخبارًا بعيدة، بل حياة تتحرك أمامها. كانت ترى الوحي وهو يغير علاقات الناس، ويحركهم من أرض إلى أرض، ويجعل الغني ينفق، والضعيف يصبر، والصديق يخاطر، والمرأة تتحمل، والطفل يحفظ.

وفي مثل هذا البيت تعلمت أن الحقيقة أغلى من المألوف؛ فقد ترك المسلمون دين آبائهم لأنهم رأوا الحق، وواجهوا المجتمع لأنهم صدقوا الوحي، وغادروا الديار لأن العقيدة لم تعد جزءًا من المكان، بل صار المكان كله تابعًا لها. وستحمل عائشة هذا الاستقلال في شخصيتها العلمية؛ لن ترى الكثرة

برهانًا، ولا مكانة الراوي مانعًا من المراجعة، ولا شيوع الفهم دليلًا على صحته. فالطفلة التي تربت في بيت رجل خالف قومه جميعًا حين عرف الحق، ستكبر وفي عقلها استعداد أصيل لأن تقول: ليس الأمر كما قيل، إذا قام عندها الدليل.

ولعل هذا هو الجذر النفسي لفقه الاستدراك عندها. لم تكن مراجعاتها مجرد تفوق في الحفظ، كانت ثمرة تربية ترى أن الوفاء للحقيقة أعلى من المجاملة. لكنها ورثت عن أبيها كذلك رقة القلب وحفظ أقدار الناس، فكانت تستدرك على الصحابة دون أن تهدم منزلتهم، وتصحح الخبر دون أن تحول الخطأ إلى خصومة أخلاقية. كانت تعرف أن الإنسان الكبير قد يهم، وأن صيانة العلم تقتضي تصحيح وهمه، وأن حفظ فضله يقتضي ألا يتحول ذلك التصحيح إلى تشهير.

هكذا اجتمع في تربيتها ميزانان ستحتاج إليهما الأمة طويلًا: شجاعة النقد وأخلاق النقد. فالنقد الذي يخاف الأشخاص يخون الحقيقة، والنقد الذي يهدر فضل الأشخاص يخون العدل. وعائشة، ابنة الصديق وتلميذة النبي ﷺ، ستقف في المسافة الدقيقة بين الوفاءين: وفاء للحق يمنعها من السكوت، ووفاء لأهل الفضل يمنعها من الجحود.

مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ: انْتِقَالُ الطِّفْلَةِ وَانْتِقَالُ الْعَالِمِ

حين هاجرت عائشة مع أسرتها إلى المدينة، لم تكن تنتقل من بيت إلى بيت فحسب، كانت تنتقل من طور في التاريخ إلى طور آخر، ومن طفولةٍ شهدت

الإيمان محاصرًا إلى حياةٍ سترى فيها الوحي يبني مجتمعًا. مكة علمتها معنى الثبات حين يكون الحق ضعيفًا في أعين الناس، والمدينة ستعلمها كيف يتحول الحق إلى شريعةٍ وعلاقات ومؤسسات ومسؤوليات.

في مكة سمعت القرآن يتحدى الباطل، وفي المدينة سترى القرآن يعالج تفاصيل الحياة. في مكة عرفت الخوف الذي يحيط بالمؤمنين، وفي المدينة ستعرف الأعباء التي تأتي بعد التمكين. فالرسالة لا تنتهي حين ينجو أصحابها من الاضطهاد، عند النجاة تبدأ مسؤولية البناء، وتظهر أسئلة الأسرة والمجتمع والحرب والسلم والعبادة والمعاملة. وعائشة ستنتقل إلى قلب هذا العالم الجديد، لا مراقبةً من بعيد، بل ساكنةً في بيت من تنزل عليه الأحكام.

كانت المدينة تستعد لاستقبال مرحلة النضج في شخصيتها. الذاكرة التي التقطت مشاهد مكة ستجد أمامها في بيت النبوة مادةً لا تنفد للحفظ والفهم. والطفلة التي سمعت القرآن في بيت أبي بكر ستصير الزوجة التي ترى أثر القرآن في أدق تصرفات النبي ﷺ. والعين التي حفظت دمعة الصديق ستشهد دموع رسول الله وابتسامته وغضبه ورضاه وعبادته ورحمته. والفتاة التي تعلمت أن تسأل ستجد أمامها المعلم الذي لا يضيق بالسؤال الصادق، بل يربي به العقل ويكشف له الطريق.

لم تكن عائشة تعلم وهي تغادر مكة أن الأمة ستحتاج يومًا إلى كل ما رأته، إلى لعبها القديم الذي حدد زمن نزول آية، وإلى ذاكرتها عن زيارات النبي ﷺ، وإلى وصفها لحظة الهجرة، وإلى دمعة أبيها، وإلى تفاصيل الطريق والبيت

والأسرة. لم تكن تعرف أن طفولتها نفسها ستصبح مصدرًا من مصادر السيرة، وأن الأشياء التي بدت صغيرةً في حينها ستغدو بعد وفاة شهودها أثمن من الكنوز.

لكن العناية التي أعدت أبا بكر للصحبة كانت تعد عائشة للشهادة؛ شهادة القرب، لا شهادة المحكمة وحدها، بل شهادة الإنسان الذي يرى ثم يحفظ ثم يفهم ثم يؤدي ما حفظه إلى الأجيال. لقد كان أبوها رفيق النبي ﷺ في الطريق من مكة إلى المدينة، وستكون هي رفيقته في طريق آخر: طريق نقل حياته الخاصة إلى الأمة، وحفظ الوجه الذي لا تراه الجموع من هديه، وتفسير السنة من داخل البيت الذي عاشت فيه.

وهكذا لم تكن طفولة عائشة مقدمةً زائدةً يمكن تجاوزها للوصول إلى «المرحلة المهمة» من حياتها؛ كانت المعمل الأول الذي صيغت فيه أدواتها. في بيت الصديق تعلمت أن الإيمان موقف، وأن الحب تضحية، وأن القرآن يصنع إنسانًا جديدًا، وأن المرأة شريكة في حمل الأمانة، وأن العقل لا ينبغي أن يخاف السؤال، وأن الدمع لا يناقض القوة، وأن الحقيقة أعلى من رضا الناس.

كانت ما تزال فتاةً صغيرةً حين وصلت إلى المدينة، لكن في داخلها كانت تتجمع عناصر امرأة ستصبح من أعظم معلمات الإسلام: ذاكرةٌ استيقظت قبل أوانها، ولغةٌ تشربت صفاء قريش، وقلبٌ رأى الصديقية في بيته، وعينٌ

حفظت دمعة الفرح، وروحٌ عرفت أن الوحي ليس كلامًا يمر فوق الحياة، بل قوةً تعيد بناءها من جذورها.

وكانت المرحلة التالية تنتظرها خلف باب بيت متواضع، سقفه قريب، وأثاثه قليل، لكن السماء كانت تتردد في جنباته. هناك ستدخل عائشة لا لتعيش إلى جوار رجل عظيم فحسب، بل لتتلقى عن رسول الله ﷺ، وهناك سيبدأ التحول الأكبر: من طفلةٍ نشأت في بيت الصديق إلى عالمةٍ يتكون وعيها في بيت النبوة، ومن ذاكرة تحفظ المشاهد إلى عقل يتعلم كيف يقرأ دلالاتها، ومن ابنةٍ للإسلام الأول إلى أمٍّ للمؤمنين تحمل إلى الأمة ما لم يكن يستطيع حمله سواها.

كانت الحجرة صغيرةً، لكن التاريخ كان يتهيأ ليتسع فيها.

الْفَصْلُ الثَّانِي

فِي بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ: حِينَ تَعَلَّمَ الذَّكَاءُ مِنَ الْوَحْيِ

لم تدخل عائشة رضي الله عنها بيتًا ترفرف فيه القداسة المجردة من الحياة، ولم تعش إلى جوار نبيٍّ غابت وراء جلال الرسالة ملامحه الإنسانية؛ بل دخلت بيتًا قليل الأثاث، ضيق المساحة، كثير الأعباء، تتعاقب عليه أفراح البشر وأحزانهم، وتنزل فيه آيات السماء لتعيد ترتيب شؤون الأرض. كان رسول الله ﷺ فيه نبيًّا يوحى إليه، وزوجًا يحب ويلاطف ويغضب ويرضى، وقائدًا تتزاحم على بابه هموم الناس، وعابدًا يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، وإنسانًا يحمل أعباء الأمة ثم يدخل بيته فيرقع ثوبه، ويكون في مهنة أهله، ويجلس إلى زوجاته بقلب لم تفسده مهابة القيادة ولم تصادر رحمته أثقال الرسالة.

في ذلك البيت ستتعلم عائشة أن الوحي لا يبني الأفكار وحدها، بل يبني طرائق العيش، وأن الدين لا يظهر في خطبة الجمعة وحدها، بل يظهر كذلك في طريقة الرجل حين يخاطب زوجته، وفي احتماله غيرتها، وفي عدله بين أهله، وفي مزاحه، وصمته، ونومه، وقيامه، وطعامه، ورضاه، وفي المسافة التي يتركها للإنسان كي ينمو دون أن يسحق فرديته باسم التربية.

ولم تكن حجرات أمهات المؤمنين مجرد أماكن خاصة لحياة النبي ﷺ؛ كانت كل حجرة نافذةً حفظت للأمة جانبًا من هديه، وكان لكل واحدة من أمهات المؤمنين فضلها ونصيبها من العلم والرواية والتربية. غير أن عائشة امتازت

باجتماع خصال هيأتها لحمل ميراث واسع: حداثة السن، وقوة الحفظ، وحدة الذكاء، وكثرة السؤال، وطول الحياة بعد رسول الله ﷺ، وجرأة العقل على طلب البيان. فلم تكن قيمتها في القرب المكاني وحده؛ إذ قد يقترب الإنسان من النور ولا يفتح له نوافذ روحه، وإنما كانت في قدرتها العجيبة على تحويل القرب إلى معرفة، والمشاهدة إلى فقه، والمحبة إلى حفظ، والحياة اليومية إلى ميراث ممتد.

الْبَيْتُ الَّذِي لَمْ يَفْصِلِ الْعِلْمَ عَنِ الْحَيَاةِ

لم تجلس عائشة في بيت النبوة جلسة التلميذ أمام كتاب مفتوح في ساعات محددة، ثم تنتهي الدروس وتعود الحياة إلى مجراها؛ كانت الحياة كلها درسًا، وكان النبي ﷺ هو الكتاب الحي الذي ترى فيه القرآن وهو يمشي بين الناس. كانت تسمع منه القول، ثم ترى تفسيره في العمل؛ وتعرف الحكم، ثم تبصر الرحمة التي تحيط بتطبيقه؛ وتشاهد اختلاف الأحوال، فتتعلم أن الفقه ليس اقتطاع عبارة من زمنها ومكانها، بل فهم الإنسان والواقع والمقصد الذي جاء الشرع لتحقيقه.

كان الناس يرون رسول الله ﷺ في المسجد، أما عائشة فكانت تراه إذا أغلق الباب، وسقطت كلفة اللقاء العام، وعاد القائد إلى بساطة الإنسان. رأت كيف يكون في أهله، وكيف ينام ويستيقظ، وكيف يغتسل، وكيف يبدأ ليله، وكيف يصلي، وماذا يقول إذا دخل البيت أو خرج، وكيف يتعامل مع المرض والتعب، وكيف يظهر الحنان في علاقة لا يشهدها الناس.

ولهذا حملت إلى الأمة علمًا لا يستطيع الرجال أن يأخذوه بالمشاهدة المباشرة، ولا يمكن أن يكتمل هدي النبي ﷺ بدونه.

لم يكن هذا العلم فضولًا يتتبع الخصوصيات، كان تشريعًا لا بد للأمة منه. فكيف تعرف النساء أحكام الطهارة والعلاقة الزوجية والحيض والاغتسال لولا نساء امتلكن العلم والأمانة والقدرة على البيان؟ وكيف تعرف الأمة صلاة نبيها في الليل، وهيئة نومه، وذكره في خلوته، وطريقته في بيته، إذا لم يكن في البيت عقل يلاحظ ولسان يؤدي؟

وقد كانت عائشة شديدة الدقة في نقل هذه التفاصيل، لكنها لم تنقلها بلغة تجرح الحياء، فجمعت بين وضوح العلم وصيانة السر، وبين أداء الأمانة وأدب العبارة. وهنا تظهر عبقريتها المبكرة: لم تكن تحفظ ما قيل فحسب، بل كانت تعرف كيف يقال، ولمن يقال، وما المقدار الذي تتحقق به المعرفة دون أن تنتهك حرمة البيت الذي أُذن لها أن تكشف منه ما تحتاج إليه الأمة.

لقد علّمها البيت النبوي أن الحياء لا يعني كتمان العلم، وأن البيان لا يعني سقوط الحياء. وبين هذين الطرفين ستنشأ مدرسة كاملة في الفقه، تقودها امرأة تعرف أن بعض الأسئلة التي يتحرج الناس من طرحها قد تتوقف عليها صحة عبادة، وأن الدين الذي يخاطب الجسد والروح لا يمكن أن يترك جوانب الحياة الحساسة نهبًا للجهل والتخمين.

السُّؤَالُ الَّذِي لَمْ يَخَفْ مِنْهُ الْإِيمَانُ

كان أبرز ما في عائشة أنها لم تكن مستمعةً ساكنةً تمر الكلمات على سمعها دون أن توقظ في عقلها سؤالًا. فإذا سمعت ما يحتاج إلى تفسير سألت، وإذا بدا لها بين نصين تعارض طلبت وجه الجمع، وإذا فهم الناس من قول النبي ﷺ معنىً لا يستقيم مع ما تعلمته منه راجعته، وإذا نزلت آية أرادت أن تعرف كيف تنزل على واقع الإنسان.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نوقش الحساب عُذِّب»، فاستحضرت قول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، وقالت: أليس يقول الله ذلك؟ فلم يضق النبي ﷺ باستحضارها القرآن أمام قوله، ولم ير في سؤالها اعتراضًا مذمومًا، بل كشف لها الفرق الدقيق بين العرض والمناقشة، وقال إنما ذلك العرض، أما من نوقش الحساب فيهلك.

إن هذا الحوار القصير يكاد يلخص المدرسة كلها. حديث تسمعه، وآية تستحضرها، وسؤال يتولد من المقارنة، ومعلم لا يقمع السؤال بل يحوله إلى قاعدة في الفهم. لم يقل لها: كيف تسألين ورسول الله يحدثك؟ لأن النبوة لم تكن تخشى السؤال الصادق، ولم يأمرها بأن تحفظ اللفظ وتؤجل الفهم، لأن الوحي جاء ليبني عقلًا مؤمنًا لا ذاكرةً خائفة.

هنا كانت عائشة تتعلم أكثر من جواب مسألة؛ كانت تتعلم منهجًا: أن النصوص يفسر بعضها بعضًا، وأن التشابه الظاهري لا يعني التطابق، وأن لفظ الحساب قد يراد به العرض وقد يراد به الاستقصاء والمناقشة، وأن الفقيه لا

يقف عند الكلمة حتى يعرف المراد منها في سياقها. وستحمل هذا المنهج بعد ذلك إلى مرويات الصحابة، فتقابل ما تسمع بالقرآن وبما عاينته من هدي النبي ﷺ، وتطلب المعنى الذي تنتظم فيه الأدلة بدل أن تجعل النصوص جزرًا متفرقةً تتصادم في أذهان الناس.

وسألته ﷺ عن تبدل الأرض يوم القيامة: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ**﴾، فأين يكون الناس يومئذ؟ لم تمر على المشهد الأخروي بوصفه صورةً هائلةً تستدر الخوف وحده؛ دخل عقلها إلى داخل الصورة وسأل عن موضع الإنسان فيها. فأخبرها رسول الله ﷺ أنهم يكونون على الصراط.

وسألته عن الدعاء الذي تقوله إن وافقت ليلة القدر، فعلّمها أن تقول: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني». وسألته عن الجهاد للنساء، وسألته عن أحوال الموتى، وعن بعض أهل الجاهلية الذين كانت لهم أعمال من البر، وعن معاني لا يستقيم إيمان العقل دون أن يضعها في مواضعها.

لم تكن أسئلتها ترفًا ذهنيًّا؛ كانت تنبع من شعورها بأن ما تسمعه سيصبح دينًا يُنقل، وأن الفهم الناقص إذا خرج إلى الناس قد يتحول إلى حكم ناقص. وكانت لديها تلك الخصلة التي لا يستغني عنها عالم: القلق المعرفي الذي لا يهدأ حتى تتضح الحدود. فالإنسان قد يحفظ الجواب لأنه يخاف أن يسأل، أما عائشة فكانت تسأل لأنها تخاف أن تنقل عن رسول الله ﷺ ما لم تفهم وجهه.

وفي هذا فرق بعيد بين عقلين: عقل يريد أن يبدو عالمًا فيسكت عن إشكاله، وعقل يريد أن يكون أمينًا فيعلن موضع جهله. وقد ربّاها النبي ﷺ على أن الجهل المؤقت الذي يفتح باب السؤال أكرم من معرفة متوهمة تغلق باب التعلم.

لَمْ يُرِبْهَا بِإِلْغَاءِ شَخْصِيَّتِهَا

كانت عائشة ذكيةً، سريعة الجواب، قوية الحضور، حية الشعور، ولم يحاول النبي ﷺ أن يحولها إلى نسخة باهتة لا رأي لها ولا انفعال. لم يعتبر كمال الزوجة في أن تختفي شخصيتها، ولم يجعل الطاعة ستارًا لمحو العقل، بل ترك لها مساحةً تكون فيها نفسها، ثم كان يهذبها بالرحمة، ويعلمها بالفعل، ويعيد توجيه انفعالها دون أن يهين إنسانيتها.

وكان يعرف رضاها وغضبها من قسمها؛ فإذا كانت راضيةً قالت: لا ورب محمد، وإذا كانت غاضبةً قالت: لا ورب إبراهيم. فقال لها يومًا إنه يعرف متى تكون عنه راضيةً ومتى تكون عليه غضبى. فأقرت بذلك وقالت في صراحة المحب: ما أهجر إلا اسمك.

ما أرق هذه العبارة وما أصدقها. كانت الغيرة قد تمنع لسانها من ذكر الاسم، لكنها لا تستطيع أن تخرج الحب من قلبها. وكان النبي ﷺ يقرأ ما وراء العبارة؛ لا يقف عند ظاهر الغضب، ولا يحول اختلاف اللحظة إلى محاكمة للعلاقة كلها. لقد علمها أن الإنسان أكبر من انفعاله العابر، وأن الحب الحقيقي لا ينكر الغضب، لكنه يعرف كيف يحتويه دون أن يسمح له بهدم الأصل.

ومرةً غارت حين أرسلت إحدى أمهات المؤمنين بطعام إلى النبي ﷺ وهو عندها، فضربت الإناء فسقط وانكسر. لم يحول النبي ﷺ الموقف إلى إدانة علنية، ولم يلغ الخطأ باسم الحب، ولم يهدر كرامتها باسم التصحيح؛ جمع الطعام، وقال لأصحابه في سماحة تعرف طبيعة البشر: «غارت أمكم»، ثم ضمن الحق، فجعل إناءً مكان الإناء.

في هذا الموقف الصغير منهج كامل: فهم للدافع، وضبط للنتيجة، وحفظ للكرامة، وأداء للحق. لم يقل إن الغيرة تجعل كسر الإناء صوابًا، لكنه لم يعالج الخطأ كأن فاعلته شر محض. سمّى الشعور الذي دفعها، ثم أصلح الضرر الذي أحدثه. وهكذا رأت عائشة أن العدل لا يحتاج إلى قسوة، وأن الرحمة لا تعني تضييع الحقوق، وأن الإنسان يُفهم في ضعفه ثم يُحمّل مسؤولية فعله.

ولم تكن غيرتها صفحةً تخفيها حين تحدث الناس عن نفسها؛ لقد روت ما وقع، كما روت غيرتها من خديجة رضي الله عنها التي لم تدركها، وكما روت جواب النبي ﷺ عنها ووفاءه لها. لم تصنع عائشة لنفسها صورةً زائفةً من الكمال البارد؛ نقلت إنسانيتها كما كانت، لأن أمانتها العلمية كانت أكبر من رغبتها في تجميل ذاتها.

وهذه خصلة لا تقل دلالةً عن قوة حفظها. فالراوي قد ينتقي من سيرته ما يرفعه، أما الأمين فينقل ما له وما عليه، ويدع للحق أن يكون أعلى من صورته الشخصية. ومن خلال اعترافها بغيرتها عرفنا كيف كان النبي ﷺ

يعالج المشاعر، وكيف كان وفيًّا لخديجة، وكيف كانت البيوت النبوية تجمع بين علو المقام وواقعية الإنسان.

الْحُبُّ الَّذِي صَارَ بِيئَةً لِلْمَعْرِفَةِ

أحب النبي ﷺ عائشة، ولم يكن حبه لها سرًّا يخجل من الاعتراف به. سأله عمرو بن العاص رضي الله عنه: أي الناس أحب إليك؟ فقال: «عائشة». قال: فمن الرجال؟ قال: «أبوها». لم يُرِد رسول الله ﷺ أن يبني صورته القيادية على التجرد من العاطفة، ولم ير أن إعلان المحبة ينتقص من جلاله؛ لأن القلب الذي يحمل الرسالة لا يلزمه أن يتحول إلى حجر.

لكن هذا الحب لم يكن امتيازًا يعفي عائشة من التربية أو التكليف، ولم يكن عاطفةً تستبد بالعدل؛ كان بيئة أمان نما فيها عقلها. فالإنسان يسأل بحرية حين يشعر أن السؤال لن يطرده من المحبة، ويعبر عن رأيه حين يثق أن اختلافه لا يهدم مكانته، ويكشف ضعفه حين يعلم أن ضعفه لن يتحول إلى سلاح ضده. وفي ذلك الأمان العاطفي استطاعت عائشة أن تكون حاضرةً بكامل ذكائها، لا تلميذةً مرتجفةً تحفظ الأجوبة خوفًا من صاحبها.

وكان النبي ﷺ يلاطفها ويسابقها، ويتيح لها أن تنظر إلى لعب الحبشة في المسجد وهي تستتر به وتنظر من فوق كتفه، ويبقى واقفًا حتى تكون هي التي تكتفي. لم يكن استعجال القائد وهموم الأمة يمنعانه من مراعاة رغبة فتاة شابة في مشاهدة لعب مباح، ولم يكن يرى أن الوقار الديني يقتضي مصادرة الفرح.

كانت تنظر إلى الحبشة، لكنه ﷺ كان ينظر إلى حاجتها، ويترك لها الزمن الذي تريده. وربما كانت تريد، كما جاء في روايتها، أن تعرف الشابات مكانتها عنده، وهي رغبة إنسانية لا ينبغي أن نسخر منها، فالقلب يحتاج أحيانًا إلى أن يرى أثره في قلب من يحب، لا لأنه يشك في الحب، بل لأن المحبة تتغذى بالإشارات الصغيرة مثلما تتغذى بالكلمات الكبرى.

وفي سباقهما مرةً سبقته، ثم سبقها بعد أن حملت اللحم، فقال: «هذه بتلك». كانت النبوة قادرةً على المزاح دون أن تفقد مهابتها، وكان البيت قادرًا على الفرح دون أن يغادر جديته. وقد تعلمت عائشة من هذه التفاصيل أن الإنسان لا يقترب من الله بقتل طبيعته، بل بتنقيتها، وأن البهجة المباحة ليست عدوًا للعبادة، وأن البيت الذي تنزل فيه آيات السماء يستطيع أن يسمع ضحكةً بريئةً دون أن ينقص من نوره شيء.

بل لعل هذا التوازن هو الذي حفظ روحها من الجفاف. لقد حملت بعد ذلك علومًا كثيرةً وواجهت محنًا ثقيلةً، لكن في شخصيتها بقيت حيوية الفتاة التي تسأل وتمازح وتحاور. لم يصنع القرب من الوحي فيها قسوة المتدين الذي يخاصم الحياة، بل صنع قدرةً على وضع كل شيء في مكانه: للعب وقته، وللعلم وقته، وللعبادة ليلها، وللأمة حقها.

مِنَ الْمُشَاهَدَةِ إِلَى الْفِقْهِ

لم تكن عائشة ترى أفعال النبي ﷺ ثم تخزن صورها فحسب، كانت تبحث عما وراءها. فإذا رأت النبي ﷺ يداوم على فعل، أدركت دلالة المداومة،

وإذا ترك أمرًا خشية أن يفرض على الأمة، فهمت أثر الرحمة في التشريع؛ وإذا فعل شيئًا لعلة خاصة، حفظت العلة حتى لا يحول الناس الاستثناء إلى قاعدة.

وعاشت معه من القرب ما مكّنها من معرفة الفارق بين هديه الدائم واستجابته لعارض، وبين ما صنعه بوصفه رسولًا مشرعًا وما فعله بمقتضى طبيعته البشرية. وهذا الوعي بالسياق سيكون أحد أهم أسباب استدراكاتها اللاحقة؛ فكثير ممن رووا واقعةً رأوا ظاهرها، أما هي فقد تكون عرفت ما قبلها وما بعدها، وسمعت سؤال السائل، ورأت الحال التي قيل فيها الجواب.

ومن هنا كانت حجرتها مختبرًا مبكرًا لما سيسمى بعد ذلك فقه الحديث. النص فيها لا يعيش وحده، بل تحيط به قرائن الوجه والصوت والزمان والسبب والحال. والذاكرة التي عاشت الحدث لا تحفظ الجملة فقط، بل تحفظ البيئة التي أنجبتها. لهذا كانت شهادتها أحيانًا قادرةً على إعادة الخبر إلى موضعه حين ينتزعه الاختصار أو النسيان من سياقه.

وكان النبي ﷺ يصغي إليها كما تصغي إليه. روت له حديث النساء الطويل عن أزواجهن، المعروف بحديث أم زرع، فاستمع إلى قصة ممتدة مليئة بالأوصاف والتفاصيل، ثم وصل ما سمع بعلاقته بها وقال لها إنه كان لها كأبي زرع لأم زرع، غير أنه لا يطلقها. لقد أصغى إلى سرد امرأة، وفهم رمزها، وأجابها من داخل عالمها اللغوي والعاطفي. ولم يكن الإصغاء هنا مجاملةً؛ كان

اعترافًا بأن ما تقوله المرأة عن تجربتها يستحق أن يسمع، وأن البيان النسائي جزء من معرفة النفس والمجتمع.

ومثلما تعلمت منه الكلام، تعلمت منه الإصغاء. والعالم لا يصنعه ما يقول وحده، بل ما يحسن سماعه؛ لأن الأسئلة لا تكشف حاجات أصحابها بألفاظها الظاهرة فقط، بل بما يختبئ خلفها من خوف وحيرة وتجربة. وستصبح عائشة مقصدًا للرجال والنساء، وستحتاج إلى هذا الفقه الإنساني الذي تعلمته في بيت لم يكن السؤال فيه منفصلًا عن صاحبه.

الْوَحْيُ وَهُوَ يَنْزِلُ قَرِيبًا

عاشت عائشة قربًا من لحظات نزول الوحي لا يمكن أن يتحول إلى تجربة عادية مهما تكرر. كانت ترى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه، وتعرف ثقل ما يلقاه، وتشاهد الصلة بين حادثة تقع في الأرض وآيات تأتي من السماء لتفصل فيها أو تربي أصحابها. ولم يعد القرآن عندها نصًّا بلا تاريخ؛ كان كلام الله الذي تعرف بعض اللحظات التي لامس فيها الواقع، والقلوب التي عالجها، والأسئلة التي أجاب عنها.

وجاءها جبريل عليه السلام بالسلام، فقال لها النبي ﷺ: «هذا جبريل يقرأ عليك السلام»، فردت: «وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى». وفي جوابها يظهر وعيها بالحد الفاصل بين مقام النبوة ومقامها؛ فهي قريبة من الرسول، يبلغها سلام الملك، لكنها تعلم أن النبي ﷺ يرى ما لا ترى. لم يحولها

القرب إلى ادعاء، ولم تجعل المحبة حجابًا عن إدراك الفارق بين من يوحى إليه ومن يتلقى عنه.

وهذه العبارة الصغيرة ترسم أدبها المعرفي: «ترى ما لا أرى». إنها تعرف مقدارها كما تعرف فضلها؛ لا تلغي ذاتها، ولا تتجاوز حدها. وستكون هذه المعرفة بالحدود أساسًا من أسس علمها: فهي تتحدث فيما علمت، وتسأل عما لم تعلم، وتقول إذا خفي عليها الأمر ما يدل على توقفها، ولا تجعل قربها من النبي ﷺ دعوى للإحاطة بكل شيء.

وكان للوحي في بيتها حضور سيبلغ ذروته في حادثة الإفك، حين تنزل آيات تتلى إلى قيام الساعة ببراءتها. لكن قبل تلك المحنة وبعدها كانت تتعلم أن السماء ليست بعيدةً عن تفاصيل الحياة، وأن الله يسمع ما يدور في البيوت، ويعلم خفايا القلوب، ويشرع للأمة من خلال وقائع يعيشها أشخاص من لحم ودم.

ولذلك لم يكن فقهها فقهًا باردًا؛ كانت تعرف أن وراء الحكم قلبًا، ووراء الآية واقعةً، ووراء التشريع رحمةً أو تطهيرًا أو حماية. وقد منحتها هذه المعايشة حسًّا نادرًا بمقاصد النصوص؛ فهي لم تتعلم الدين مجموعة أوامر معلقة في الفراغ، بل رأته ينزل ليهدي الإنسان في ضعفه، ويضبط قوته، ويحمي كرامته، ويقيم عدله.

فِي مَدْرَسَةِ الْعِبَادَةِ

وكان الليل فصلًا آخر من تعليمها. إذا هدأت المدينة، ورجع الناس إلى بيوتهم، رأت النبي ﷺ يقوم بين يدي ربه طويلًا، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وحين سألته عن ذلك قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟».

لم تعد العبادة أمامها مجرد تكليف يؤديه الخائف من العقوبة؛ رأتها شكرًا يتفجر من قلب عرف النعمة. ورأت أن أعلم الناس بالله أكثرهم عبوديةً له، وأن القرب الحقيقي لا يولد الاستغناء عن الطاعة، بل يزيد العبد تواضعًا وشكرًا. وستحمل هي نفسها شيئًا من هذا الليل بعد رحيله، كأنها تعلمت أن العلم الذي لا يقود صاحبه إلى السجود لم يدخل بعد إلى جوهره.

ووصفت قيامه وقراءته وصلاته وصفًا دقيقًا، لأن عين العالمة فيها كانت تراقب حتى وهي زوجة محبة. لم يشغلها جمال اللحظة عن حفظ هيئتها للأمة، ولم يحولها الحفظ إلى مراقبة جافة تفقد العبادة روحها. كانت تجمع بين المعايشة والتوثيق، وبين التأثر والدقة، حتى صار ليل النبي ﷺ الذي جرى وراء الأبواب معلومًا للمؤمنين من بعدها.

وفي المرض رأت صبره، وفي الجوع رأت زهده، وفي النصر رأت تواضعه، وفي الخلاف رأت عدله، وفي البيت رأت خدمته لأهله. كانت التربية تتكرر أمامها في صور لا تنتهي، وكل صورة تضيف إلى عقلها معنى: ليس الزهد رفضًا للنعمة، بل حريةً منها؛ وليس العدل خطابًا يقال على المنبر، بل قسمةً

دقيقةً داخل البيوت، وليست الرحمة موقفًا مع الضعفاء البعيدين فقط، بل نبرةً يحفظ بها المرء كرامة أقرب الناس إليه.

حِينَ رَحَلَ الْمُعَلِّمُ وَبَقِيَتِ الشَّاهِدَةُ

ثم جاء اليوم الذي لم تكن المدينة مستعدةً له، وإن كانت آيات الله قد قررت أن محمدًا ﷺ بشر ورسول سيموت كما مات الرسل من قبله. اشتد به المرض، واستأذن زوجاته أن يُمرّض في بيت عائشة، فأذنَّ له. وعاد إلى الحجرة التي عرفت كثيرًا من حياته، ليقضي فيها ساعاته الأخيرة.

كان رأسه بين صدرها ونحرها، وجمعت العناية في تلك اللحظة بين ريقها وريقه حين ليّنت له السواك بأسنانها، ثم استاك به. وسمعته يخيّر بين الدنيا والرفيق الأعلى، فعرفت أنه لا يختارهم، وأن الرحيل قد حضر. قالت بعد ذلك إنه قُبض بين سحرها ونحرها، وفي يومها، وفي بيتها.

ليس ثمة فراق يمكن للكلمات أن تحمل ثقله. الرجل الذي أحبته لم يكن زوجها وحده؛ كان رسول الله ومعلمها ومركز العالم الذي عرفته. والبيت الذي امتلأ بصوته صار فجأةً موضع جسده المسجى، والمدينة التي كانت تستدل على الحياة بحركته وجدت نفسها أمام الصمت الأكبر.

لكن الموت الذي أنهى المعايشة بدأ مسؤولية الشهادة.

لم يعد في مقدور الأمة أن تدخل على رسول الله ﷺ وتسأله، غير أن بينها امرأةً عاشت إلى جواره، حفظت قوله وفعله وسكوته وابتسامته وغضبه ورضاه، وعرفت من هديه الخاص ما لا يعرفه سواها. ولم تعد الحجرة بعد دفنه

فيها مكانًا للذكرى وحدها، تحولت إلى الحد الفاصل بين عهدين: عهد كان النبي ﷺ يجيب فيه بنفسه، وعهد ستتقدم فيه عائشة لتحمل شيئًا من أمانة الجواب.

مات المعلم، لكن تلميذته لم تكن قد بدأت أعظم أدوارها بعد.

لقد دخلت بيت النبوة فتاةً ذكيةً حية الروح، وخرجت من سنوات المعايشة عقلًا صقلته الأسئلة، وذاكرةً امتلأت بالتفاصيل، وقلبًا عرف الحب والفقد، وبصيرةً رأت الوحي وهو يربي الإنسان داخل الحياة. لم تتعلم من النبي ﷺ عددًا من الأحاديث فحسب؛ تعلمت كيف يفكر المؤمن تحت ضوء الوحي، وكيف يجمع بين النصوص، وكيف يفهم اختلاف الأحوال، وكيف يضع الرحمة إلى جوار الحكم، وكيف يصون الإنسان وهو يصحح خطأه.

ولم يُرد لها القدر أن تنتهي بانتهاء الحياة الزوجية؛ فقد بقي أمامها زمن طويل ستتحول فيه الحجرة من بيت يسكنه الرسول ﷺ إلى جامعة يقصدها طلاب العلم. وسيجلس وراء سترها كبار الصحابة وأبناؤهم، يسألونها عما أشكل عليهم، فتجيب مرةً، وتستدرك مرةً، وتقول للسائل: ما أحسن ما سألت، أو تبين له أن الخبر لم يُحفظ على وجهه.

هناك سيظهر الأثر الكامل لتلك السنوات.

سيكتشف الناس أن الفتاة التي كانت تسأل رسول الله ﷺ لم تكن تسأل لنفسها وحدها، وأن العين التي كانت تراقب عبادته كانت تحفظ ليل الأمة،

وأن الزوجة التي عرفت رضاه وغضبه كانت تتعلم دقائق النفس، وأن المرأة التي عاشت الحب والغيرة والملاطفة كانت تجمع في قلب التجربة الإنسانية مادةً سيحتاج إليها الفقه والأخلاق والتربية إلى آخر الزمان.

لقد أُغلق باب الحجرة على جسد رسول الله ﷺ، لكنه فُتح من جهة أخرى على وعي الأمة.

ومن ذلك الباب ستخرج عائشة لا بصفتها أرملةً تحتفظ بذكريات رجل عظيم، بل أمًّا للمؤمنين تحمل ميراث النبي، وعالمةً ستجعل من السؤال منهجًا، ومن الذاكرة حجةً، ومن القرب مسؤوليةً، ومن الحجرة أول جامعة كبرى تدرّس فيها الحياة النبوية من داخلها.

هناك ستبدأ المرحلة التي لم تعد فيها عائشة تتلقى العلم فحسب، بل تحرسه.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

الْحُجْرَةُ الَّتِي صَارَتْ جَامِعَةً

حين توفي رسول الله ﷺ، خُيِّل إلى المدينة أن كل شيء قد توقف. لم يكن غياب رجل عظيم عن قومه، بل غياب النبع الذي كانوا إذا اختلفوا قصدوه، وإذا أشكل عليهم أمر سألوه، وإذا ضاقت بهم التأويلات ردهم إلى وجه الحق. كان القرآن باقيًا، وكانت السنة محفوظةً في صدور أصحابه، لكن زمن السؤال المباشر قد انتهى؛ فلم يعد في مقدور أحد أن يقول: نذهب إلى رسول الله فنسأله، أو ننتظر حتى ينزل الوحي فيفصل فيما اختلفنا فيه.

بدأت الأمة تدخل زمن الذاكرة والاجتهاد.

وفي مثل هذا الزمن لا تكون قيمة الإنسان بمقدار ما سمع وحده، بل بمقدار ما فهم مما سمع، وما حفظ من سياقه، وما امتلك من أمانة تمنعه من الزيادة والنقصان، وما لديه من عقل يستطيع أن يصل بين النصوص المتفرقة ليعيد بناء الصورة الكاملة. ولهذا لم يكن ميراث النبوة موزعًا بين الصحابة توزيعًا متساويًا من كل وجه؛ فلكل واحد منهم مشاهد حضرها، وأقوال سمعها، وأحوال اختص بمعرفتها، وتجارب صنعت زاوية نظره. وكانت عائشة رضي الله عنها تحمل من هذا الميراث نصيبًا لا يمكن أن يقوم غيرها مقامها فيه.

بقيت في حجرتها، وبقي رسول الله ﷺ مدفونًا فيها، لكن المكان لم يتحول إلى قبر للذكريات؛ صار منبعًا للعلم. كانت الجدران التي شهدت حياته الخاصة

تحيط الآن بامرأةٍ حفظت تلك الحياة، وكانت المدينة تأتيها تسأل عن صاحب القبر القريب منها: كيف كان يصلي؟ كيف كان يغتسل؟ ماذا قال في هذه المسألة؟ ما سبب هذا الحكم؟ ماذا صنع حين وقع كذا؟ وهل سُمع هذا الخبر على وجهه، أم اختصر الراوي منه شيئًا؟

لم تكن الحجرة واسعة، ولم يكن فيها من أثاث المدارس شيء، ولم تحمل على بابها اسم مؤسسة، لكن الجامعات لا تبدأ دائمًا من المباني؛ قد تبدأ من عقل تتجمع عنده الأسئلة، ومن ثقة عامة تجعل الناس يقطعون المسافات ليجلسوا عند باب واحد. وبالمعنى الحضاري للجامعة — اجتماع المعلم والطلاب، وتعدد العلوم، واستمرار التلقي، وتكوين الأجيال — كانت حجرة عائشة واحدةً من أقدم الجامعات العلمية في الإسلام وأكثرها أثرًا.

لم يكن الناس يدخلون عليها جميعًا؛ فقد كانت أم المؤمنين، وللحجاب حرمته، فكان غير محارمها يسألونها من وراء ستر، ويدخل عليها محارمها وأقرباؤها ومن أُذن له وفق ما تقتضيه الأحكام. غير أن الستر الذي حجب الجسد لم يحجب العقل، ولم يمنع صوتها من الوصول، ولم يحل بينها وبين أداء أمانتها. كانت تجيب من وراء الحجاب، فيخرج السائل يحمل إلى الأمصار علمًا وُلد في تلك الحجرة.

وهنا تظهر واحدة من أعظم الدلالات في سيرتها: أن الإسلام الذي فرض على أمهات المؤمنين خصوصية الحجاب لم يجعل الحجاب إلغاءً لحضورهن العلمي؛ بل صان المقام وفتح طريق التعليم. لم يكن على المرأة أن تتخلى عن أنوثتها أو

أحكام دينها كي تصبح مرجعًا، ولم يكن على المجتمع أن يقتحم خصوصيتها كي ينتفع بعقلها. وُجدت صيغة تجمع بين الصيانة والفاعلية، فصار الرجال يسألون امرأةً من وراء ستر، ولا يرون في رجوعهم إليها نقصًا في رجولتهم، ولا ترى هي في تعليمهم خروجًا عن وقارها.

سُلْطَةٌ لَمْ يَمْنَحْهَا مَنْصِبٌ

لم تتولَّ عائشة وظيفةً رسميةً في دولة، ولم يصدر قرار يجعلها مفتية المدينة، ولم تكن تملك سلطةً تلزم الناس بأجوبتها؛ ومع ذلك وجدت نفسها في مركز من مراكز التوجيه العلمي الكبرى. لقد صنعت كفاءتها سلطتها، وصنع صدقها ثقة الناس بها، وصنع قربها من النبي ﷺ مادة علمها، ثم جاء عقلها ليحول تلك المادة إلى معرفة قادرة على الجواب.

ثمة سلطات يمنحها المنصب ثم تسقط بسقوطه، وثمة سلطة لا يمنحها إلا الاعتراف الحر من العقول. كانت سلطة عائشة من النوع الثاني. لم يرجع الناس إليها لأنها أم المؤمنين فحسب؛ فالمكانة الروحية تستوجب التوقير، لكنها لا تكفي وحدها لصناعة المرجعية العلمية. رجعوا إليها لأنهم وجدوا عندها علمًا، ولأن أسئلتهم التي أعيتهم كانت تجد في حجرتها بيانًا، ولأنها إذا روت أحكمت، وإذا فسرت كشفت، وإذا استدركت أقامت الدليل.

قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، وهو من فقهاء الصحابة وعلمائهم، إن أصحاب رسول الله ﷺ ما أشكل عليهم حديث قط فسألوا عائشة إلا وجدوا عندها منه علمًا. وهذه الشهادة ليست مديحًا صادرًا عن تلميذ صغير مأخوذ

بهيبة معلمته؛ إنها شهادة صحابي جليل يتحدث عن تجربة جماعية: كانوا يسألونها، وكانوا يجدون عندها علمًا.

إن كلمة «أشكل» هنا تكشف طبيعة الدور الذي قامت به. لم تكن مرجعًا في الأخبار السهلة التي يتساوى الناس في حفظها، بل في مواضع الإشكال؛ حين تتعارض الظواهر، أو يخفى السبب، أو يحتاج اللفظ إلى سياق، أو تختلف الروايات. كانت الحجرة مكانًا يذهب إليه السؤال بعد أن يعجز عن حل نفسه في أماكن أخرى.

ولذلك لم تكن مكانتها هبةً من عاطفة الناس تجاه بيت النبي ﷺ، بل ثمرة امتحان متكرر. كل سؤال يصل، وكل جواب يخرج، وكل استدراك يثبت، كان يضيف حجرًا إلى بنية الثقة العامة بها. ومع مرور السنوات أصبحت عائشة من المكثرين في الرواية، فنُقل عنها ما يزيد على ألفي حديث، لكن العدد وحده لا يفسر أثرها؛ فقد تكون كثرة الرواية جمعًا للأخبار، أما كثرتها عند عائشة فاقترنت بالشرح والفقه ومعرفة أسباب الورود ودقائق الحياة التي صدرت عنها النصوص.

كانت راويةً تسكن داخل روايتها.

تعرف الوجوه التي قيلت أمامها الكلمات، والليالي التي وقعت فيها الأفعال، والأسئلة التي استدعت الأجوبة، والبيوت التي دارت فيها الوقائع، والمشاعر التي أحاطت بها. ولهذا كانت بعض رواياتها تحمل حرارة المشهد كما لو أنه يقع أمام السامع؛ تصف حركة النبي ﷺ، وصوته، وابتسامته، وانتظاره، وتردده

في أمر، ورحمته بسائل، وطول قيامه، وهيئة بكائه. لم تكن السنة عندها متناً منزوعًا من الحياة، بل حياةً بقيت تتحرك داخل المتن.

طُلَّابٌ مِنْ أَجْيَالٍ وَبِلَادٍ مُخْتَلِفَةٍ

قصد عائشةَ الصحابةُ يسألونها، ثم جاء التابعون، ثم حمل تلاميذها علمها إلى أجيال بعدهم. وكان من أبرزهم عروة بن الزبير، ابن أختها أسماء رضي الله عنها، الذي دخل عليها دخول القريب المحرم، وجمع إلى صلته العائلية شغف الطالب، فصار من أعلم الناس بحديثها وسيرتها.

لم يكن عروة يسمع من خالته أخبارًا عائليةً فحسب، كان أمام مكتبة حية تختزن زمن النبوة. سألها عن الفقه، والطب، والشعر، والأنساب، وأخبار الجاهلية والإسلام، فكان كل باب يفتحه يجد وراءه علمًا. وتعجب من سعة معرفتها بالطب، فسألها من أين لها هذا العلم، فذكرت أن رسول الله ﷺ كان يمرض في آخر عمره، فتفد عليه وفود العرب وتصف له الأدوية، فكانت تعي ما يصفون.

مرةً أخرى نرى الطريقة التي يتكون بها علمها: تراقب، وتصغي، وتحفظ. لم تذهب إلى مدرسة للطب، لكن بيت النبوة كان تمر فيه خبرات الناس، وكان عقلها مفتوحًا لا يهدر معرفةً نافعةً لمجرد أنها ليست حديثًا أو فقهًا. لقد فهمت أن العالم لا يعيش داخل تخصص مغلق، وأن الإنسان الذي يُسأل عن الحياة يحتاج إلى معرفة بطبائع الأجساد والنفوس واللغة والمجتمع.

وكان من تلاميذها القاسم بن محمد بن أبي بكر، أحد فقهاء المدينة الكبار، ومسروق بن الأجدع، الذي كان إذا حدث عنها عظّم قدرها وذكر منزلتها، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعطاء بن أبي رباح، وغيرهم من رجال التابعين الذين انتشر علمهم في المدينة ومكة والعراق وسائر الأمصار.

ولم يكن تلاميذها رجالًا وحدهم. أخذت عنها نساء عالمات كان لهن أثر بعيد في نقل السنة، وفي مقدمتهن عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية، التي صارت من أوثق الناس في حديث عائشة، حتى كان علماء المدينة يرجعون إلى مروياتها. وأخذت عنها عائشة بنت طلحة وغيرها من نساء بيتها والمدينة. وهكذا لم تكن عائشة صوتًا نسائيًّا منفردًا يسطع ثم ينطفئ؛ صنعت سلسلةً من العالمات، وحولت حضورها إلى تقليد معرفي تتلقاه امرأة عن امرأة، ثم تؤديه إلى الرجال والنساء معًا.

وهذا من أعظم ما يميز المعلم الحقيقي: أنه لا يحتكر المعرفة ليظل متفردًا، بل يوزعها حتى يصبح تلاميذه امتدادًا له. لم تكن عائشة تجمع الناس حول شخصها، وإنما تجمعهم حول ما حملته عن رسول الله ﷺ. وكل طالب أتقن عنها حديثًا أو فهم قاعدةً كان يخرج بجزء من نور الحجرة إلى مكان آخر، حتى اتسعت تلك الغرفة الصغيرة في خرائط الرواية، وصارت كلماتها تُسمع في مجالس لم ترها، وفي مدن لم تقصدها، وعلى ألسنة أجيال ولدت بعد موتها.

كان عروة يحمل علمها إلى فقهاء المدينة، وكان مسروق يحمله إلى العراق، وكان عطاء ينقله في مكة، وكانت عمرة تحفظه داخل المدرسة المدنية. لم تتسع

الحجرة بالجدران، بل بالطرق التي خرجت منها، كل تلميذ كان بابًا جديدًا، وكل رواية صحيحة كانت نافذةً تُفتح في بلد بعيد.

لَمْ تُخَرِّجْ حَفَظَةً فَحَسْبُ

لم تكن طريقة عائشة في التعليم تقوم على إملاء الأخبار وطلب حفظها؛ كانت تعلم السائل كيف يفكر في الخبر. تسأله أحيانًا عما بلغه، وتستوضح اللفظ، ثم تبين موضع الوهم أو النقص. وقد ترفض طريقة أداء الحديث إذا كانت السرعة تذهب بحدوده، وتذكر أن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الكلام سردًا متلاحقًا، بل كان يتكلم بكلام بيّن، لو شاء العاد أن يحصيه لأحصاه.

إنها هنا لا تصحح معلومةً فقط؛ تصحح هيئة التعليم. فالمعرفة ليست سباقًا في إخراج الكلمات، والحديث النبوي ليس مادةً تعرض بسرعة تدهش السامعين ثم تفلت معانيها. كان وضوح الأداء جزءًا من الأمانة، لأن الكلمة التي لا يتمكن السامع من فهمها قد تُحفظ مبتورةً أو تُنقل محرفةً.

وكانت تعيد السؤال أحيانًا حتى تتأكد من مراد صاحبه، أو تطلب من الراوي أن يثبت عند لفظه، أو ترسل من يتحقق من الخبر. لم تر أن مكانتها تعفيها من المراجعة، ولم تجعل ثقتها بذاكرتها سببًا لترك التثبت. فالمرجعية عندها ليست أن يملك الإنسان جوابًا حاضرًا لكل شيء، بل أن يملك ضميرًا لا يسمح له أن يقول على رسول الله ﷺ ما لم يتيقن منه.

وحين سُئلت عن قضاء الصوم دون الصلاة للحائض، لم تكتفِ ببناء قياس عقلي من عندها، بل ردت المسألة إلى الخبرة النبوية المباشرة: كان يصيبهن

ذلك على عهد رسول الله ﷺ، فيؤمرن بقضاء الصوم ولا يؤمرن بقضاء الصلاة. إنها تربط الحكم بمصدره، وتبين للسائل أن العبادة توقيف، وأن العقل يعمل داخل هدي الوحي، لا في فراغ يتوهم فيه أنه قادر على اختراع الأحكام بمجرد التشابه.

وكانت تصحح كذلك سوء السؤال إذا شمّت فيه أثر اتجاه منحرف أو تكلف لا حاجة إليه. لم تكن تمنح كل سؤال الشرعية لمجرد أنه صيغ في صورة استفهام؛ كانت تفرق بين سؤال يريد الهدى وسؤال يحمل في داخله اعتراضًا مموهًا أو اتباعًا لمسلك يخرج الحكم من معناه. فهي التي تعلمت من النبي ﷺ حرية السؤال تعلمت كذلك مسؤوليته: ليس كل استفهام بحثًا عن الحق، كما أن ليس كل سكوت أدبًا.

ومن مجلسها يخرج الطالب وهو يحمل جواب المسألة، لكنه يحمل فوق ذلك شيئًا من منهجها: أن يجمع الروايات، ويرد المتشابه إلى المحكم، ويسأل عن السياق، ويميز بين ما رآه الراوي وما فهمه، ولا يجعل جلالة الاسم عذرًا لقبول الوهم، ولا يجعل الخطأ سببًا لإهدار الفضل.

كانت تبني ملكةً، لا مخزنًا.

الْعِلْمُ الَّذِي يَعْرِفُ حُدُودَهُ

ومع سعة علمها لم تكن عائشة تدعي الإحاطة. لقد عرفت من بيت النبوة أن بعض الصحابة يحفظ ما لم تحفظه، وأن الشريعة توزعت شواهدها بين

رجال ونساء حضر كل واحد منهم ما غاب عنه الآخر. كانت تسأل غيرها أحيانًا، وتتحقق ممن شهد الواقعة، وتقر بالعلم لمن علم.

وهذا الاعتراف بتوزع المعرفة هو الذي جعل مجتمع الصحابة قادرًا على بناء صورة السنة؛ لم يكن أحد منهم يملكها وحده، ولم يكن فضل أحد يقتضي محو الآخرين. كان بعضهم يعلم أبوابًا من القضاء، وبعضهم يحفظ الفرائض، وبعضهم يعرف القراءات، وبعضهم صحب النبي ﷺ في أسفار لم تشهدها عائشة، بينما اختصت هي بمعرفة واسعة بحياته الخاصة وفقه الأسرة والعبادة وأسباب كثير من الأقوال.

لم نتعامل مع اختصاصها بوصفه احتكارًا؛ بل أدته جزءًا من ميراث جماعي. غير أنها لم تسمح للتواضع أن يتحول إلى انسحاب، ولا للحياء أن يمنعها من قول ما تعلم. فمثلما يكون الكلام بغير علم جرأةً مذمومة، يكون السكوت عن علم تحتاج إليه الأمة تفريطًا في الأمانة.

وكانت تعرف أن قربها من رسول الله ﷺ لا يجعل كل رأي لها وحيًا، وأن أمومتها للمؤمنين لا تمنح اجتهادها العصمة. ولهذا بقيت عالمةً بشريةً تجتهد وتصيب، وقد تخالف غيرها ويخالفها غيرها، غير أن منزلتها في العلم تُحفظ كما تحفظ إنسانيتها. لقد علمت الأمة بسيرتها أن تعظيم العلماء لا يعني إغلاق باب مناقشتهم، وأن إمكان الخطأ لا يلغي مرجعيتهم.

وهذه قاعدة حضارية عميقة: لا تبنى المعرفة بعلماء معصومين، فالعصمة ليست إلا لأنبياء الله فيما يبلغون عنه؛ وإنما تبنى بعلماء أمناء، يعرفون

ويجهلون، يصيبون ويخطئون، ويرجعون إلى الدليل، ويحفظ المجتمع فضلهم دون أن يحولهم إلى نصوص مقدسة.

الْمَرْأَةُ الْمَرْجِعُ

كان في رجوع الرجال إلى عائشة معنى يتجاوز عدد المسائل التي أجابت عنها؛ فقد ثبت في ضمير الأمة العملي أن المرأة قد تبلغ من العلم منزلةً تجعل كبار الرجال يسألونها، وأن الأنوثة ليست نقصًا معرفيًّا، وأن الحياء لا يمنع البيان، وأن المجتمع الذي يحرم نفسه من عقول نسائه يهدر جزءًا من أمانته.

لم تكن عائشة تحتاج إلى خطاب نظري تثبت به أهلية المرأة للعلم؛ كان علمها نفسه هو البرهان. لم تقل للناس: اعترفوا بمكانتي لأنني امرأة؛ بل تعلمت حتى لم يستطيعوا أن يستغنوا عنها. ولم يكن الرجال الذين قصدوها يمنحونها فضلًا من عند أنفسهم؛ كانوا يعترفون بواقع فرضته الكفاية.

ومع ذلك لا ينبغي انتزاعها من مرجعيتها الإيمانية وتحويلها إلى شعار حديث لا يشبهها. لم تكن فاعليتها تمردًا على النبوة، بل ثمرةً من ثمارها؛ ولم يكن صوتها العلمي قطيعةً مع أحكام دينها، بل أداءً لأمانته. كانت تستمد قوتها من عبوديتها، ومكانتها من العلم، وحدود حضورها من الشريعة نفسها التي فتحت أمام عقلها مجال التعليم والتأثير.

إن عائشة تقدم نموذجًا أعمق من الصراع السطحي بين حضور المرأة واحتشامها؛ فقد اجتمع فيها الاثنان دون تناقض. بقيت وراء سترها، لكن العقول جاءت إليها. لم تظهر للناس كي يسمعوا علمها، ولم يطالبها أحد بأن

تصمت كي يصون حرمتها. كان الصوت يصل، وكان العقل يعمل، وكانت الأمومة الروحية تمنح المجلس أدبه، وكانت الحجة تمنح الجواب قوته.

وهذا التوازن لا تصنعه الشعارات، بل تصنعه ثقافة تعرف أن للإنسان جسدًا يصان وعقلًا لا يُعطل، وأن الحرمات لا تُحفظ بإهدار المواهب، كما أن المواهب لا تحتاج إلى كسر الحرمات كي تؤدي رسالتها.

مَجْلِسُ الْعِلْمِ وَمِحْرَابُ الْعِبَادَةِ

لم تكن الحجرة مدرسةً نهارًا ومكانًا آخر ليلًا؛ كانت العلم والعبادة في فضاء واحد. من وراء سترها تجيب السائلين، فإذا خفَّت الأصوات عادت إلى الصلاة والقرآن والذكر. ولم يكن هذا الانتقال بين الدرس والمحراب انتقالًا بين شخصيتين، بل عودة العلم إلى منبعه.

كانت تعرف أن ما تحمله ليس ملكًا لها، وأن كل حديث تنقله أمانة، وكل فتوى تقولها وقوف بين يدي الله قبل أن تكون جوابًا للناس. ولذلك لم يكن خوفها من الخطأ خوفًا على صورتها العلمية وحدها، بل خوفًا من أن تنسب إلى الدين ما ليس منه. والخشية هي التي منحت عقلها شجاعته المتوازنة؛ فالإنسان الذي يخاف الله حقًّا يقل خوفه من هيبة البشر، لكنه يزداد خوفًا من ظلمهم.

ربما جلس عند بابها في يوم واحد سائل عن حديث، وآخر عن ميراث، وامرأة عن شأن من شؤون الطهارة، وطالب يطلب تفسير آية، ثم ينتهي المجلس فتوزع مالًا وصلها، أو تقوم إلى صلاتها. كانت العلوم والأعمال تعود

كلها إلى مركز واحد: الله الذي عاشت النبوة في جواره وتريد أن تلقاه أمينةً على ما حملت.

ومن هنا لم يتحول علمها إلى طبقة تفصلها عن الناس. بقيت قريبةً من أسئلة النساء الدقيقة، ومن مشكلات البيوت، ومن حيرة العابدين، ومن اضطراب السياسة، ومن آلام المجتمع. لم تكن عالمةً في برج لغوي مرتفع، بل في حجرة يطرق بابها الإنسان حين يحتاج إلى معرفة تهديه في واقعه.

الْحُجْرَةُ الَّتِي اتَّسَعَتْ بَعْدَ صَاحِبَتِهَا

عاشت عائشة بعد رسول الله ﷺ عقودًا، فكان طول حياتها جزءًا من حفظ الله لهذا العلم. مات كثير ممن شهدوا البدايات، وكبر جيل لم ير النبي ﷺ، ثم جاء جيل لم ير كبار أصحابه، لكن عائشة بقيت حلقةً تصل بينهم وبين البيت النبوي. كان الشاب التابعي يجلس إليها، فيسمع صوتًا سمع رسول الله ﷺ، ويحمل عنه وصفًا لا تفصله عن زمن النبوة إلا ذاكرة واحدة.

ومع كل عام كان احتياج الأمة إليها يزداد؛ فالفتوحات تتسع، والمسلمون ينتشرون، والوقائع الجديدة تظهر، والروايات تنتقل بين الأمصار، ويقع الاختصار والوهم. وفي هذا الاتساع تصبح الذاكرة الدقيقة أثمن، ويصبح العقل القادر على المراجعة ضرورةً لا ترفًا.

ولهذا لم تكن حجرة عائشة أثرًا ساكنًا من آثار المدينة؛ كانت جهازًا حيًّا من أجهزة حفظ الوعي الإسلامي. تخرج منها الرواية مصحوبةً بشرحها، ويعود إليها الخبر ليُختبر، وتتصل فيها ذاكرة البيت بأسئلة المجتمع الجديد. كانت

الماضي الذي لم ينغلق، والحاضر الذي يستفتيه، والمستقبل الذي يتشكل من أجوبته.

ثم ماتت عائشة رضي الله عنها، وأُغلقت صفحة حضورها المباشر، لكن الحجرة كانت قد تجاوزت مكانها. حملها عروة في ذاكرته، وحملتها عمرة في روايتها، وحملها القاسم في فقهه، وحملها مسروق وعطاء وأبو سلمة في مجالسهم. وصارت كلماتها أبوابًا في كتب الحديث، ومسائل في كتب الفقه، وقواعد في مناهج النقد، وشواهد في اللغة والسيرة.

لم يعد طلابها يقفون عند سترها، لكن ملايين المسلمين صاروا يدخلون إلى علمها من خلال الكتب. ولم تعد تجيب بصوتها، لكن جوابها بقي يتردد كلما سأل إنسان: كيف كان رسول الله ﷺ في بيته؟ وكيف نفهم هذا الحديث؟ وما الذي أراده بهذا القول؟ وأي الروايات أحفظ للسياق؟

لقد بدأت الحجرة غرفةً صغيرةً تسكنها امرأة، ثم صارت ذاكرةً تسكنها أمة.

غير أن أعظم ما خرج من تلك الجامعة لم يكن كثرة الأحاديث وحدها، بل منهجٌ في حماية الحديث من الفهم المبتور. فلم تكن عائشة تقف عند حدود الرواية؛ كانت تستدرك على الرواة، وتقيم القرآن شاهدًا، وتستحضر المقصد، وتعيد القول إلى سياقه.

وهناك، عند فقه الاستدراك، ستظهر عبقريتها في أكثر صورها سطوعًا: لا بوصفها حافظةً لما قاله النبي ﷺ فقط، بل حارسةً لما أراده.

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

فِقْهُ الِاسْتِدْرَاكِ: الْعَقْلُ الَّذِي حَرَسَ الْمَعْنَى

لم تكن عائشة رضي الله عنها حارسة ألفاظ تقف عند أبواب الرواية لتمنع سقوط كلمة أو زيادة أخرى فحسب؛ كانت حارسة معنى، تعرف أن الخطر على السنة لا يأتي دائمًا من اختلاق الحديث، بل قد يأتي من رواية صحيحة يُنتزع منها سياقها، أو لفظ محفوظ يُحمّل ما لا يحتمل، أو واقعة جزئية تُرفع إلى مرتبة القاعدة العامة، أو ذاكرة صادقة يداخلها الوهم في موضع من المواضع.

وقد يسلم النص من التحريف، ثم لا يسلم معناه من الاختزال.

وهنا كانت عائشة تمارس واحدًا من أرفع أدوارها العلمية: تستمع إلى ما يرويه كبار الصحابة، فلا يمنعها فضلهم من المراجعة، ولا يحملها الاستدراك عليهم على إنكار مكانتهم. كانت تعلم أن الجيل الذي تربى على يد رسول الله ﷺ هو خير أجيال الأمة، لكنها تعلم كذلك أنهم بشر؛ يسمع أحدهم ما لم يسمعه الآخر، ويحضر واحدهم أول الموقف ويغيب عن آخره، ويحفظ اللفظ ويخفى عليه سببه، أو يروي المعنى فيسقط منه قيد يغير وجه الفهم.

لم يكن الاستدراك عندها اعتراضًا على السنة، بل دفاعًا عنها؛ ولم يكن خروجًا على الجماعة، بل إسهامًا في اكتمال ذاكرتها؛ ولم يكن إعلانًا لتفوق الذات، بل تحملًا لتبعة العلم. فالذي يعرف وجه الحديث ثم يسكت حين

يسمعه يُروى على غير وجهه لا يكون متواضعًا، وإنما يكون مفرطًا في أمانة يعرف أن الأمة ستبني عليها دينها.

ولهذا لم تقل عائشة في نفسها: هؤلاء كبار الصحابة، وماذا يكون قولي إلى جوار أقوالهم؟ لأنها لم تكن تزن الحق بأعمار الرجال أو منازلهم، بل بالدليل الذي قامت عليه معرفتها. وكانت تعرف أن توقير الصحابي لا يعني نسبة العصمة إليه، وأن تصحيح الوهم لا يمحو الفضل، وأن المجتمع الذي يخاف مراجعة عظمائه محكوم عليه أن يورث أخطاءهم مع علومهم.

لقد بلغ من وضوح هذا الجانب في سيرتها أن أفرده بدر الدين الزركشي بعد قرون بكتاب سماه «**الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة**»، وكأن استدراكاتها لم تعد حوادث متناثرةً في كتب الحديث، بل تحولت إلى ظاهرة معرفية تستحق أن تُدرس في ذاتها: امرأة تقف في قلب الجيل الأول، تحمل القرآن والسنة والمشاهدة واللغة، وتراجع بها ما تسمعه من أعلام الرجال. وقد جمع الزركشي هذه الاستدراكات في كتاب مستقل .

الِاسْتِدْرَاكُ لَيْسَ خُصُومَةً

ينبغي أن نحرر كلمة «الاستدراك» من ظلال الخصومة التي قد تلحق بها في أذهاننا المعاصرة. لم تكن المجالس العلمية في زمن عائشة ساحات يتربص فيها كل عالم بالآخر ليثبت تفوقه، ولم تكن مراجعتها للصحابة محاولةً لهدم الثقة

بهم؛ فالذين استدركت عليهم هم رجال تحبهم وتعرف فضلهم، وبعضهم من أقرب الناس إليها وإلى بيتها.

كان الاستدراك مشاركةً في بناء الصورة. الراوي يقدم ما سمع، وتقدم عائشة ما عاينت، ويأتي ثالث بقرينة، ثم يجمع العلماء الطرق حتى يظهر المعنى. لا أحد يملك المشهد كله من زاويته وحدها، ولا تكتمل ذاكرة الأمة إلا حين يتجاور الشهود ويتحاورون.

وكان من أدبها أنها لا تبدأ بإسقاط الراوي، بل تفرق بين صدقه ووقوعه في الوهم. تقول في بعض ما بلغها: رحم الله فلانًا، أو غفر الله له، ما كذب ولكنه وَهِم، أو نسي. وهي عبارات ترسم الحد الفاصل بين نقد الخبر واتهام ناقله. فقد يكون الرجل صادقًا في قصده، عدلًا في سيرته، ثم لا يحفظ واقعةً على تمامها؛ والتصحيح هنا لا يقتضي اغتيال شخصيته الأخلاقية.

ما أحوج العقل الإسلامي إلى هذا الأدب: أن يستطيع أن يقول للعظيم أخطأت، دون أن يقول له سقط فضلك؛ وأن يرد الرواية الجزئية دون أن يهدم عدالة الراوي؛ وأن يجعل الحقيقة أعلى من الأشخاص، ثم يجعل العدل بالأشخاص جزءًا من الحقيقة نفسها.

كانت عائشة شديدةً حين يستدعي المعنى شدة، رفيقةً حين يكون موضع الرفق، لكن مقصدها في الحالتين واحد: ألا يخرج إلى الأمة عن رسول الله ﷺ معنى تعلم أنه لم يرده.

الْقُرْآنُ: السَّقْفُ الَّذِي لَا يَعْلُوهُ خَبَرٌ

كان القرآن حاضرًا في عقل عائشة حضور الميزان، لا حضور الزينة. لم تكن تستشهد بالآية بعد أن تنتهي من بناء رأيها، بل كانت تنطلق منها في فحص ما تسمع؛ فما صح عن رسول الله ﷺ لا يمكن أن يناقض كتاب الله، لأن مصدرهما واحد، وإنما يقع التعارض في فهم السامع، أو في اختصار الرواية، أو في غياب القيد الذي تنتظم به الدلالات.

ومن أشهر أمثلة ذلك ما بلغها من رواية أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه. لم تتعامل مع الخبر بوصفه لفظًا يكفي ثبوت ناقله لإغلاق باب النظر، بل استحضرت أصلًا قرآنيًّا محكمًا: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. كيف يحمل الميت تبعة بكاء لم يصنعه، وقد قرر القرآن أن نفسًا لا تحمل وزر نفس؟

ثم أعادت الرواية إلى المشهد الذي تعرفه: مر النبي ﷺ على يهودية يعذبها الله، وأهلها يبكون عليها، فقال إنهم يبكون وإنها لتعذب في قبرها. فالبكاء واقع من جهة، والعذاب واقع من جهة، وليس في اللفظ أن العذاب نشأ عن بكائهم. لقد جمع بعض السامعين بين حدثين متزامنين بعلاقة سببية، فردت عائشة كل حدث إلى موضعه، واستدلت بالقرآن على استحالة تحميل الإنسان ذنب غيره. أصل استدراكها ورواية مرور النبي ﷺ باليهودية ثابتان في الصحيحين .

وفي روايات أخرى وردت للحديث وجوه حملها العلماء على معانٍ متعددة، فقال بعضهم إن المراد من أوصى بالنياحة، أو رضي بها في حياته، أو أنه يتألم بما يرى من جزع أهله، وجمعوا بين الطرق بما يحفظ دلالاتها. وهذه التفسيرات اللاحقة تؤكد أن استدراك عائشة لم يغلق الاجتهاد، بل فتحه: أجبر العقل العلمي على ألا يقبل المعنى الظاهر إذا اصطدم بأصل قرآني، وأن يبحث عن السياق أو القيد الذي يرفع الإشكال.

لم تقل إن السنة تُرد بالقرآن؛ فالسنة عندها هي البيان النبوي للقرآن، وهي من أعظم رواتها. لكنها رفضت أن يسمى الفهم البشري الناقص سنةً ثم يوضع في مواجهة كتاب الله. كانت تفرق بين كلام النبي ﷺ وبين الصورة التي انتهى إليها الكلام بعد أن مر في ذاكرة الراوي وفهمه.

وهذا من أدق وجوه عقلها: القرآن لا يُستخدم لإلغاء الحديث الصحيح، والحديث لا يُفهم بطريقة تجعله مصادمًا للمحكم القرآني؛ بل يجمع بينهما حتى يعود كلام الله وهدي رسوله نورًا واحدًا.

حِينَ قَفَّ شَعْرُهَا مِنْ جُرْأَةِ الْمَعْنَى

سألها مسروق: هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فقالت إن شعرها قد قفَّ مما قال، ثم قررت ثلاثة أصول، مستدلةً لكل أصل بالقرآن: من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه، استدلت عليه بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾؛ ومن زعم أنه يعلم ما في غد استدلت عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا

تَكْسِبُ غَدًا﴾، ومن زعم أن النبي ﷺ كتم شيئًا من الوحي استدلت عليه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾. ثم بيّنت أنه ﷺ رأى جبريل عليه السلام على صورته. ورد هذا الحوار بتمامه في الصحيح

.

إننا أمام عقل تتحرك فيه الآيات كأنها حاضرة عند السؤال، لا يحتاج إلى بحث طويل ليستخرجها من الذاكرة. لم تجب مسروقًا بعاطفة القرب من النبي ﷺ، ولم تقل: أنا زوجته وأعرف؛ بل أقامت الدليل. مكانتها تمنح شهادتها وزنًا، لكن الحجة هي التي تمنح الجواب قوته.

ولم تكن شدتها في العبارة موجهةً إلى مسروق، وإنما إلى خطورة أن ينسب إلى مقام النبوة ما يتجاوز حدودها التي قررها الوحي. كانت تحب رسول الله ﷺ أكثر مما يستطيع الوصف أن يحيط، لكن حبها لم يدفعها إلى الغلو فيه؛ لأن المحبة التي علمها إياها النبي ﷺ محبة عبودية لا محبة تأليه. ولذلك كانت حراسة التوحيد عندها جزءًا من حراسة النبوة: النبي أجلّ البشر، لكنه عبد الله ورسوله، لا يحيط بالغيب إلا بما أطلعه الله عليه، ولا يكتم من البلاغ شيئًا.

ومع ذلك فإن الأمانة العلمية تقتضي أن نذكر أن ابن عباس رضي الله عنهما نُقل عنه في مسألة الرؤية قول آخر، وفهم بعض العلماء أنه أراد رؤية القلب لا رؤية البصر، وسلك العلماء مسالك في الجمع بين الأقوال. ليست الغاية أن نحول اجتهاد عائشة إلى قول لا يجوز بحثه؛ فالكتاب الذي يقدمها عقلًا ناقدًا

لا يليق به أن يمنع النقد عند الوصول إليها. الغاية أن نرى منهجها: كيف ردت الدعوى إلى القرآن، وكيف رفضت أن يكون القرب العاطفي من النبي ﷺ بابًا للغلو فيه، وكيف قدمت الدليل على الهيبة.

كانت تعلم أن أعظم الوفاء للرسول أن يبقى في المقام الذي وضعه الله فيه؛ فلا يُجحد فضله ولا يُرفع فوق عبوديته.

سَبَبُ النُّزُولِ: حِينَ يُنْقِذُ التَّارِيخُ دَلَالَةَ النَّصِّ

قرأ عروة بن الزبير قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾، وفهم من ظاهر عبارة ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ**﴾ أن من لم يطف بين الصفا والمروة لا حرج عليه.

كان الاستنباط من جهة ظاهر اللفظ ممكنًا، لكن عائشة قالت له إنه أساء الفهم؛ فلو كان المعنى كما ذهب إليه لكانت العبارة: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما. ثم شرحت له الخلفية التي نزلت فيها الآية: كان بعض الأنصار في الجاهلية يتحرجون من السعي بين الصفا والمروة لعلاقة ذلك بمناسكهم القديمة، فلما جاء الإسلام بقي في نفوسهم حرج، فنزلت الآية ترفع حرج الفعل، لا ترفع وجوبه.

أعادت عائشة الآية إلى لحظة نزولها، فانقلب المعنى.

وهنا يظهر الفرق بين قارئ يملك القاموس وقارئ يملك التاريخ. قد تكون كل الكلمات معلومة، والتركيب واضحًا، ثم يضل المعنى لأن السائل لا يعرف السؤال الذي جاءت الآية جوابًا عنه. لم يكن النص غامضًا في ذاته، لكن

المسافة بين القارئ وزمن النزول حجبت عنه وجهه، فجاءت ذاكرة عائشة لتعيد وصل العبارة ببيئتها.

وقد أضافت إلى سبب النزول حجةً لغويةً دقيقةً: لو كان المراد نفي الحرج عن الترك لورد النفي على الترك نفسه. إن عقلها يعمل هنا بأداتين متكاملتين: الرواية التاريخية التي تعرف سبب النزول، والحس اللغوي الذي يقرأ موضع النفي وبنية الجملة. فلم تكتف بقول: نحن أعلم بما نزل، بل كشفت كيف يؤيد اللسان العربي ما حفظته من السياق. أصل حوارها مع عروة وبيانها سبب النزول مروي في الصحيح .

هذه ليست فتوى في السعي بين الصفا والمروة وحده؛ إنها درس باكر في أصول التفسير. فالآية قد تكون عامة اللفظ، لكن سبب نزولها يكشف الإشكال الذي تعالجه، ومعرفة ذلك السبب تحمي النص من قراءة تنتزع الكلمات من سؤالها الأول. والسياق ليس قيدًا يسجن القرآن في الماضي، بل مفتاح يفتح دلالته الصحيحة للحاضر.

كانت عائشة بذلك تعلم عروة — وتعلم الأمة من ورائه — أن شجاعة الاستنباط لا تغني عن معرفة الرواية، وأن الذكاء اللغوي إذا انفصل عن أسباب النزول قد ينتج معنى متماسكًا في ظاهره لكنه بعيد عن مراد النص.

الْمُشَاهَدَةُ: حِينَ تَتَقَدَّمُ شَهَادَةُ الْبَيْتِ

ومن أقوى أدوات عائشة في الاستدراك أنها لم تكن تستند دائمًا إلى سماع منقول، بل إلى مشاهدة متكررة لحياة النبي ﷺ. فإذا رُوي حكم يتعلق بما يقع داخل البيت، كانت تقول بلسان الشاهد: رأيته يفعل كذا، أو كان يصنع كذا، أو وقع ذلك وأنا حاضرة.

وذُكر عندها أن الصلاة يقطعها مرور المرأة والحمار والكلب، فاشتد عليها أن تُذكر المرأة في صياغة تضعها إلى جوار الحيوان، وقالت: لقد شبّهتمونا بالحمر والكلاب، ثم أقامت شهادتها: كانت تضطجع على السرير بين رسول الله ﷺ والقبلة وهو يصلي، فإذا احتاجت إلى القيام انسلت من عند رجليه كراهية أن تؤذيه. روايتها في هذا الباب ثابتة في الصحيح .

لم تقل: إن هذا الحكم يسيء إلى المرأة بحسب شعوري، ثم تكتفي بالانفعال؛ بل قدمت واقعة من حياة النبي ﷺ. كانت هي المرأة الموجودة أمام المصلي، وكان المصلي رسول الله ﷺ، ومع ذلك أتم صلاته.

ثم جاء الفقهاء بعد ذلك ففرقوا بين المرور أمام المصلي وبين كون المرأة مستقرةً مضطجعة، وبحثوا في معنى القطع وحدوده، وجمعوا طرق الأحاديث. ومرةً أخرى لم يكن استدراكها إغلاقًا للبحث، بل منعًا للتسوية المتعجلة. أضافت إلى الملف واقعة لا يجوز للفقه أن يتجاهلها، وألزمت العقل أن يصوغ الحكم بطريقة تستوعب جميع الشواهد.

والفارق كبير بين من يستخدم رواية عائشة لإسقاط كل حديث في الباب، ومن يهمل روايتها ليحافظ على فهم أولي. منهجها هي يرفض الطرفين: لا إلغاء للنصوص، ولا إلغاء للشهادة المباشرة؛ وإنما جمع يحرر موضع كل دليل.

ووقع شبيه بذلك في مسألة من أدركه الفجر جنباً في رمضان. نُقل عن أبي هريرة رضي الله عنه في أول الأمر ما يفهم منه أن من أصبح جنبًا فلا يصوم، فشهدت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يدركه الفجر جنبًا من أهله، ثم يغتسل ويتم صومه. وهنا كانت معرفة الزوجات مقدمةً بحكم طبيعة الواقعة؛ فهن شهود ما لا يشهده الرجال.

ولما بلغه قولهما رجع الأمر إلى مصدر خبره، وقال عن أمهات المؤمنين: هن أعلم. ثبتت شهادة عائشة وأم سلمة في الصحيح .

ما أصفى هذه الجملة: «هن أعلم». لم تتحول المراجعة إلى معركة كرامة، ولم ير الصحابي أن رجوعه إلى علم امرأتين ينقص قدره؛ لأن القضية لم تكن انتصار رجل على امرأة، بل انتصار الشهادة الأقرب إلى الواقعة. حين يكون الخبر عن داخل البيت، فأهل البيت أعلم؛ وحين تقوم الحجة، تكون الرجولة في الرجوع إليها، لا في المكابرة عليها.

وفي هذا المشهد درس للأمة: تفاوت مواقع الناس من الوقائع يؤدي إلى تفاوت علمهم بها. فقد يعرف الأصغر ما يجهله الأكبر، وتشهد المرأة ما يغيب

عن الرجل، ويحفظ المتأخر في الإسلام واقعة فاتت السابق، ولا يرفع هذا فضلًا ثابتًا ولا يضع منزلةً راسخة؛ إنما يقرر أن المعرفة تتبع الدليل، لا الترتيب الاجتماعي لأصحابها.

الذَّاكِرَةُ الَّتِي تُصَحِّحُ زَمَنَ الْحَدَثِ

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يذكر أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عمر، إحداهن في رجب. وكان قريبًا من حجرة عائشة، فسمعت قوله، فأرسل إليها عروة يسألها. قالت: «يرحم الله أبا عبد الرحمن»، ثم بينت أن النبي ﷺ لم يعتمر عمرةً إلا وابن عمر شاهدها، وما اعتمر في رجب قط. ورد هذا الاستدراك في الصحيحين .

تأمل أدب البداية: «يرحم الله أبا عبد الرحمن». الرحمة تسبق التصحيح، وحفظ قدر الصحابي يحيط ببيان الوهم. لم تقل: إنه لا يعرف، أو لا يوثق بحفظه؛ بل ذكرت قرينة تزيد الموقف لطفًا ووضوحًا: كان شاهدًا للعمر كلها، ومع ذلك وقع الوهم في تعيين الشهر.

وهذه من طبائع الذاكرة البشرية؛ قد تحفظ الحدث وتخطئ في تاريخه، أو تجمع بين واقعتين متشابهتين، أو تنقل الشهر من موضع إلى آخر. والصحبة الجليلة لا تخرج الذاكرة من بشريتها. لقد أقرت مدرسة الصحابة نفسها بهذه الحقيقة، فلم تجعل احتمال الوهم طعنًا في العدالة، ولم تجعل العدالة مانعًا من إثبات الوهم.

كان يمكن لعائشة أن تصمت لأن ابن عمر من كبار العباد والعلماء، لكن صمتها كان سيثبت في وعي الناس أن العمرة وقعت في رجب. إن التفاصيل الزمنية قد تبدو صغيرة، لكنها تصنع تاريخ السنة، وقد تترتب عليها تصورات فقهية عن فضيلة زمان أو استحباب فعل. لذلك كان تصحيح الشهر جزءًا من صيانة التشريع من أن تُبنى فضيلة موسمية على واقعة لم تقع فيه.

كانت ذاكرتها هنا لا تنافس ذاكرته، بل تكمل سجل الأمة. قال ما عنده، وقالت ما عندها، وبقي للعلماء أن يجمعوا ويحققوا. تلك هي المعرفة حين تكون حيةً: لا تسكت الأصوات احترامًا لاسم، ولا تتحول اختلافات الذاكرة إلى اتهامات، بل تعرض الشهادات حتى يستبين الراجح.

التَّفْرِيقُ بَيْنَ مَا قَالَ النَّبِيُّ وَمَا فَهِمَهُ الرَّاوِي

ربما كان أعظم ما وعته عائشة أن الرواية تمر بثلاث طبقات: ما قاله النبي ﷺ، وما فهمه السامع، وما أداه بعد ذلك. وقد يقع التداخل بين الطبقات حتى يظن الراوي أن فهمه جزء من اللفظ، أو ينقل الخلاصة التي استقرت في ذهنه بدل الصورة التي وقعت أمامه.

ومن هنا كانت تسأل: هل قال رسول الله هذا اللفظ نفسه؟ وفي أي حال قاله؟ وعمَّن كان يتحدث؟ وهل نقل الراوي أول الكلام وآخره؟ فالسياق قد يحول النفي إلى إثبات، والخصوص إلى عموم، والحكاية عن قوم إلى حكم على جميع الناس.

كانت تدرك أن صدق الناقل لا يضمن وحده صحة الدلالة المستخرجة من نقله. وقد يكون الإسناد صحيحًا، لكن الفقه المستنبط يحتاج إلى نظر جديد. وهذه حقيقة مركزية في علوم الإسلام: صحة الحديث لا تعني صحة كل فهم يُبنى عليه؛ فبين ثبوت النص وتنزيل الحكم مسافة يعمل فيها الفقه واللغة والأصول والجمع بين الأدلة.

وقد جعلت عائشة حياتها داخل بيت النبي ﷺ مخزونًا من القرائن. فإذا بلغها خبر له علاقة بعبادته قالت كيف كان يفعل، وإذا تعلق بخلقه استحضرت عادته العامة، وإذا أوهم نسبة ما لا يليق به ذكرت ما تعرفه من سيرته. ومن أجمع وصفها له قولها إنه ما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله. هذا الأصل الذي وصفَت به منهجه ثابت في الصحيحين .

مثل هذا الوصف الكلي يصبح ميزانًا لفهم الوقائع الجزئية. فإذا رويت قصة توهم أنه انتقم لذاته، سأل الفقيه: هل حفظت القصة كاملة؟ وإذا نُسب إليه تشديد بلا سبب، نُظر: هل في الأيسر إثم أو مفسدة خفية؟ كانت عائشة لا تحفظ أفعالًا منفصلةً فقط، حفظت الشخصية النبوية في انتظامها العام، ولذلك استطاعت أن تكتشف حين يبدو خبر جزئي غريبًا عن ذلك الانتظام.

فِقْهُ الْمَقَاصِدِ مِنْ دَاخِلِ النَّصِّ

لم تكن عائشة تستعمل كلمة «المقاصد» بالمصطلح الذي نضج في كتب الأصول بعد ذلك، لكنها كانت تمارس شيئًا من جوهرها: تبحث عما يريد الحكم أن يحققه، وتقرأ النصوص في ضوء العدل والرحمة والتوحيد وصيانة الإنسان.

حين استدلت بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، كانت تحرس أصل المسؤولية الفردية وعدل الله. وحين ردت دعوى علم النبي ﷺ بالغد إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، كانت تحرس التوحيد وحدود الرسالة. وحين شرحت آية الصفا والمروة بسبب نزولها، كانت تحرس مقصد رفع الحرج عن المؤمنين الذين بقي في نفوسهم أثر من الجاهلية.

لم تكن المقاصد عندها أفكارًا مستقلةً تفرضها على النص؛ كانت تستخرجها من شبكة النصوص نفسها. القرآن يضيء الحديث، والسيرة تكشف وجه الحكم، واللغة تضبط الاحتمال، والمشاهدة تضع الواقعة في موضعها. ومن اجتماع هذه الأدوات يولد الفقه.

وهنا تفترق عائشة عن منهجين منحرفين: منهج يحفظ اللفظ ويلغي العقل حتى يحول الدين إلى جمل متفرقة، ومنهج يعظّم العقل حتى يستغني به عن الوحي. لم تكن مع هؤلاء ولا أولئك؛ كان عقلها يعمل داخل نور الوحي، لا مطفأً أمامه ولا مستكبرًا عليه.

فالعقل في تجربتها ليس خصم النص، بل آلة الوفاء له.

أَخْلَاقُ التَّصْحِيح

لم تكن قيمة استدراكات عائشة في أدلتها وحدها، كان في طريقتها الأخلاقية ما يستحق أن يتحول إلى منهج. لم تكن تفرح بخطأ الآخر، لأن الخطأ عندها ثغرة في المعرفة لا فرصة لتضخيم الذات. ولم تكن تجمع أوهام الرجال لتصنع منها سلّمًا إلى المجد، بل كانت تصحح ما يبلغها ثم تمضي.

كان بإمكانها، بما لها من قرب ومكانة وبلاغة، أن تجعل كل اختلاف معركةً تربحها أمام الناس، لكنها في أكثر مواطنها تحفظ للصحابي كنيته وفضله، وتدعو له بالرحمة، ثم تبين وجه الصواب. لم تكن المجاملة تمنع الحقيقة، ولم تكن الحقيقة تحتاج إلى إهانة.

وهذا الأدب ثمرة خشيتها، فالذي يعرف أنه قد يخطئ كما أخطأ غيره لا يتشفى، والذي يريد وجه الله لا يحتاج إلى تحطيم المخالف ليظهر. كانت حادةً في بعض الألفاظ لأن المعنى عندها عظيم، لكن حدتها لم تكن مشروع خصومة شخصية، ولم تتحول مراجعتها إلى تصنيف للقلوب.

وقد قبل الصحابة والتابعون منها ذلك، ورد بعضهم عليها، واختلفوا معها في مسائل، وبقيت المودة والحرمة. لم يكن الخلاف العلمي طلاقًا أخلاقيًّا بين المؤمنين. وهذه صورة فقدتها عصور كثيرة حين صار التصحيح إدانةً، والاجتهاد هويةً مغلقة، والرجوع عن القول هزيمةً.

في مدرسة عائشة، يستطيع أبو هريرة أن يقول عن أمهات المؤمنين: هن أعلم؛ وتستطيع هي أن تقول عن ابن عمر: يرحم الله أبا عبد الرحمن؛ ويستطيع العلماء من بعدهم أن يجمعوا بين الروايات دون أن يجعلوا أحدًا منهم متهمًا في دينه.

كانوا يختلفون تحت سقف الأخوة، لأنهم يعرفون أن السنة أكبر منهم جميعًا.

لَا عِصْمَةَ لِلْمُسْتَدْرِكِ

غير أن الإعجاب بجرأتها العلمية قد يدفع بعض القراء إلى خطأ معاكس: أن يحولوا كل استدراك لها إلى حكم نهائي، وأن يفترضوا أن قربها من النبي ﷺ يجعل رأيها مقدمًا في كل خلاف. وهذا لا ينسجم مع المنهج الذي تمثله هي؛ فمن كانت تراجع الكبار بالدليل لا يجوز أن نجعلها فوق المراجعة.

لقد ناقش العلماء بعض استدراكاتها، ورأوا في طائفة منها إمكان الجمع بين قولها وقول غيرها، أو حمل رواية الصحابي على وجه صحيح لم تقصده هي، أو ترجيح دليل آخر في المسألة. وهذا لا ينقص من عبقريتها؛ بل يؤكد أن العلم الإسلامي لم يُبنَ حول شخصية واحدة، وأن الحقيقة تظهر من حوار الشواهد.

ليست عظمتها في أنها كانت مصيبةً في كل ما قالت؛ فالعصمة ليست لها ولا لغيرها من الصحابة. عظمتها في أنها أسست حق السؤال داخل أفضل الأجيال، وأنها قبلت ضمنًا أن يطبق عليها المعيار نفسه الذي طبقته على غيرها: الدليل فوق الجميع.

إن تحويل عائشة إلى شخصية لا تخطئ يهدم أعظم دروسها، لأنها تعلمنا أن الفضل لا يمنع النقد، وأن قرب الإنسان من النبوة لا يحوله إلى نبي، وأن توقير العلماء يتحقق مع فحص أقوالهم لا بإلغاء العقل أمامهم. كانت أمًّا للمؤمنين، لكن الأمومة لا تعني العصمة، وكانت من أفقه الناس، لكن الفقه اجتهاد، وكانت الصديقة بنت الصديق، لكن الصدق لا يخرج الذاكرة والرأي من حدود البشر.

وهكذا يبقى منهجها حيًّا، لأننا نستطيع أن نتعلم منه حتى حين نناقش بعض نتائجه.

حِرَاسَةُ الْوَحْيِ مِنْ سُوءِ الْفَهْمِ

من يتأمل استدراكات عائشة يرى أنها بنت جدارًا من عدة طبقات حول المعنى النبوي:

القرآن في الطبقة العليا، يحكم ولا يُحكم عليه، والسنة الثابتة تفسر القرآن وتنسجم معه، والسياق يحفظ الحديث من الاقتطاع، واللغة تضبط الاحتمالات، والمشاهدة تقدم القرينة الأقرب، والجمع بين الطرق يمنع الرواية المنفردة من ابتلاع الصورة، وأدب الخلاف يصون العلم من أن يتحول إلى نزاع نفوس.

لم تكتب عائشة كتابًا في أصول الفقه، لكن سيرتها العلمية كانت كتابًا حيًّا في الأصول. لم تضع عناوين مثل «الجمع بين الأدلة» و«اعتبار سبب الورود» و«رد المتشابه إلى المحكم»، لكنها مارستها قبل أن تستقر مصطلحاتها. وربما

كانت الحضارة تبدأ دائمًا هكذا: ممارسة صحيحة يولد منها بعد أجيال اسم العلم وقواعده.

لقد أثبتت أن حفظ الوحي لا يعني تجميد العقل، بل تشغيله بأعلى درجات الأمانة، وأن السؤال ليس تهديدًا للنص الصحيح، بل قد يكون هو الذي ينقذه من الفهم الفاسد، وأن النقد لا يُضعف الثقة بالسنة، بل يميز السنة من أوهام الرواة وتأويلات السامعين.

وكانت في كل ذلك ابنة بيت النبوة: أخذت من القرآن معياره، ومن النبي ﷺ رحمته بالسائل، ومن أبي بكر شجاعة الانحياز إلى الحق، ومن فصاحتها القدرة على وضع الاعتراض في كلماته النافذة. وحين اجتمعت هذه العناصر، وُلد عقل لا يكتفي بأن يقول: رُوي، بل يسأل: كيف رُوي؟ ولماذا قيل؟ وفيمن قيل؟ وماذا قال القرآن؟ وما الذي شهدته حياة النبي ﷺ؟

ذلك العقل هو الذي جعل حجرتها محكمةً للمعنى، لا محكمةً للرواة، يدخلها الخبر فلا يخرج منها حتى يستعيد سياقه، ويسترد حدوده، ويتصل بأصوله.

لم تكن عائشة تحرس الوحي من أعدائه وحدهم؛ كانت تحرسه من محبة متعجلة قد تنسب إلى الرسول ما لم يقل، ومن ورع ساذج يخاف أن يسأل، ومن ذاكرة صادقة قد تنسى، ومن عقل يقتطع النص ليوافق ما سبق إليه.

وهذه هي الحراسة الأصعب؛ لأن الخطر فيها يأتي أحيانًا من قلب يريد الخير.

لقد مات رسول الله ﷺ، وبقيت عائشة تقول للأمة، بعلمها قبل لسانها: لا يكفي أن تحفظوا كلماته، تعلّموا كيف تصونون مراده. لا تجعلوا الرواية صنمًا من الألفاظ، ولا تجعلوا العقل إلهًا يحاكم الوحي بأهوائه. اجمعوا، واسألوا، وتثبتوا، وردوا الجزئي إلى الكلي، واحفظوا للرواة فضلهم دون أن تمنحوهم العصمة.

كان الوحي قد انقطع عن النزول، لكن عائشة بقيت تحرس طريقه إلى الفهم.

ولهذا لم تكن مجرد محدِّثة تروي ما سمعت، كانت فقيهةً تحمي الأمة من أن تسمع نصف الحقيقة، ثم تظنه الحقيقة كلها.

الْفَصْلُ الْخَامِسُ

عَائِشَةُ الْمُعَلِّمَةُ: مِنْ حِفْظِ الْخَبَرِ إِلَى صِنَاعَةِ الْعَقْلِ

ليس كل من امتلك علمًا استطاع أن يصنع به عالمًا آخر، فقد تمتلئ الذاكرة بالنصوص، ويعجز صاحبها عن فتح نافذة واحدة في عقل تلميذه، وقد يعرف المرء جواب المسألة، لكنه لا يعرف كيف يقود السائل إلى الطريق الذي وُلد منه الجواب. والتعليم أرفع من نقل المعلومة؛ لأنه لا يضع في يد المتعلم ثمرةً وحسب، بل يعلمه كيف يغرس الشجرة التي تثمر.

وكانت عائشة رضي الله عنها من هذا الصنف النادر من المعلمين. لم تكتف بأن تملأ أسماع طلابها بالأحاديث، بل كانت تعيد بناء طريقتهم في النظر إليها. تعلمهم أن يسألوا عن اللفظ والسياق والسبب، وأن يفرقوا بين ما ثبت وما فُهم، وأن يحفظوا تنوع هدي النبي ﷺ فلا يحولوا السعة إلى ضيق، وأن يعرفوا حدود علمهم مثلما يعرفون مواضع قوتهم.

كانت الحجرة مجلسها، والستر بينَها وبين كثير من سائليها، لكن صوتها كان يصل محملًا بما هو أكثر من الجواب. كان الطالب يدخل إليها بسؤال جزئي، ثم يخرج أحيانًا بقاعدة، يدخل طالبًا حكمًا واحدًا، فيخرج وقد تعلم كيف يسأل، ويأتيها وفي ذهنه ثنائية مغلقة: أفعل النبي هذا أم ذاك؟ فتقول له: فعل هذا وفعل ذاك، فيكتشف أن السنة أوسع من الصورة الوحيدة التي صنعها في خياله.

وإذا كان المحدث يحفظ للأمة ما قاله النبي ﷺ، فإن المعلم يحفظ لها القدرة على فهم ما قال. وقد جمعت عائشة الوظيفتين: حملت الخبر، ثم صنعت العقل الذي يتلقاه.

الْجَوَابُ الَّذِي يَكْشِفُ خَلَلَ السُّؤَالِ

سألتها معاذة العدوية: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ وكان ظاهر السؤال يطلب علة التفريق بين عبادتين واجبتين، لكن عائشة لم تندفع إلى جواب تجريدي، بل سألتها أولًا: «أحرورية أنتِ؟».

كانت الحرورية طائفةً من الخوارج ظهر عندها التشدد في هذه المسألة، فخشيت عائشة أن يكون السؤال خارجًا من أصل فكري منحرف لا من رغبة مجردة في العلم. قالت معاذة: لست بحرورية، ولكني أسأل. عندئذ أجابتها عائشة: كان يصيبنا الحيض على عهد رسول الله ﷺ، فيؤمرن بقضاء الصوم، ولا يؤمرن بقضاء الصلاة. والحوار ثابت في الصحيحين .

إنها لم تهاجم السائلة، لكنها فتشت عن الجذر المختبئ وراء السؤال. فالألفاظ المتشابهة لا تعني دائمًا مقاصد متشابهة؛ قد يسأل إنسان ليتعلم، ويسأل آخر السؤال نفسه لأنه يحمل أصلًا يريد تمريره. والعالم لا يسمع العبارة وحدها، بل يحاول أن يعرف من أي أرض نبتت.

ولما بينت معاذة أنها لا تنتسب إلى ذلك الاتجاه، لم تمنعها عائشة من السؤال، ولم تقل إن مجرد الاستفهام في أمر ثبت عن النبي ﷺ بدعة؛ بل

أجابتها بالدليل. إنها تفرق بين سؤال يبحث عن الهدى وسؤال يتكئ على أصل فاسد، كما تفرق بين الاتباع الواعي والتكلف الذي يريد إعادة تشكيل العبادة وفق قياس لا يستند إلى سنة.

ولم تقل لها: لأن الصلاة تتكرر والصوم لا يتكرر، مع أن العلماء ذكروا هذه الحكمة بعد ذلك؛ بل ردتها أولًا إلى السنة العملية: كنا نحيض على عهد رسول الله ﷺ، فنؤمر بهذا ولا نؤمر بذاك. فالعبادات لا تُنشأ عللها من العقل ثم يُلزم الوحي باتباعها؛ وإنما يثبت الحكم بالنص، ثم يتأمل العقل حكمته.

بهذا الجواب علمتها أمرين في وقت واحد: الحكم، وحدود الاستدلال عليه.

وهذه سمة تتكرر في تعليم عائشة؛ فهي لا تنظر إلى السؤال على أنه وعاء فارغ يوضع فيه الجواب، بل تراه أحيانًا بناءً يحتاج إلى الفحص. قد تكون المشكلة في مقدمته، أو في تصوره، أو في الحصر الذي أقامه بين احتمالين. لذلك كانت تعالج بنية السؤال قبل أن تقدم نتيجته.

إن بعض الأجوبة تزيد الجهل لأنها تسلّم للسائل بخطئه الأول، ثم تبني عليه معلومات صحيحة. أما المعلم البصير فيعود خطوةً إلى الوراء، ويقول له: قبل أن أجيبك، دعنا ننظر في الطريقة التي صغت بها المسألة.

كانت عائشة تفعل ذلك بفطرة العالم الذي يعرف أن تصحيح العقل أسبق من إغراقه بالأجوبة.

حِفْظُ السَّعَةِ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ

جاءها عبد الله بن أبي قيس يسأل عن وتر رسول الله ﷺ: أكان يوتر أول الليل أم آخره؟ وعن قراءته في صلاة الليل: أكان يسر أم يجهر؟ وعن حاله إذا أراد النوم وهو جنب: أيغتسل قبل أن ينام أم يتوضأ؟

كان السائل يبحث في كل مسألة عن صورة واحدة، لأن العقل يميل بطبيعته إلى الجواب المحدد الذي يغلق الاحتمالات. لكن عائشة قالت له إن النبي ﷺ فعل هذا وفعل ذاك: ربما أوتر أول الليل وربما أوتر من آخره، وربما أسر بالقراءة وربما جهر، وربما اغتسل فنام وربما توضأ فنام.

فقال الرجل مكبرًا حامدًا: الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة. وقد رُويت أجوبتها في السنن بأسانيد صحيحة .

لم تكن عائشة تقدم قائمةً بأفعال متعددة فقط، كانت تحرس سعة السنة من أن يضيقها طالب يبحث عن هيئة واحدة. فالنبي ﷺ قد يتنوع فعله ليبين الجواز، ويختار في وقت ما يناسب حاله، ويختار في وقت آخر غيره، فتأتي الذاكرة الناقصة فتحفظ فعلًا واحدًا، ثم يأتي التعصب فيحوله من صورة جائزة إلى الطريق الوحيد.

ولو كانت عائشة تريد إظهار معرفتها بطريقة تريح السائل سريعًا، لاختارت له واحدًا من الأفعال وقالت: هكذا كان يصنع. لكنها أدت الأمانة كاملةً، حتى لو كان الجواب المركب أشق على الحفظ. قالت له في معنى كلامها: لا

تحبس رسول الله ﷺ في صورة واحدة؛ لقد فعل الأمرين، وفي تعدد فعله تعليم.

كان جوابها يحرر التدين من القلق الذي يجعل الإنسان يظن أن صحة عبادته متوقفة على تقليد حركة واحدة في كل حال. لقد علمت تلاميذها أن السنة ليست دائمًا طريقًا ضيقًا لا يحتمل إلا هيئةً واحدة؛ فقد يكون تنوع الفعل نفسه سنةً، وتكون المحافظة على السعة وفاءً بالنصوص جميعًا.

وما أكثر ما يفسد المتدين على نفسه وعلى غيره حين يأخذ إحدى صور الهدي ويحوّلها إلى امتحان للولاء، ثم ينكر على من عمل بصورة أخرى ثبتت عن النبي ﷺ. كان علم عائشة يحول دون هذا الاختزال؛ لأنها عاشت مع الرسول زمنًا طويلًا، ورأته في اختلاف أحواله، فلم تحبس هديه في اللحظة التي وافقت ذاكرتها أو ميلها.

كان الطالب يسألها: أي الأمرين فعل؟ فتقول: كليهما.

وبين السؤال والجواب كانت تولد سماحة الفقه.

حِينَ تَقُولُ الْعَالِمَةُ: غَيْرِي أَعْلَمُ

جاء شريح بن هانئ يسأل عائشة عن المسح على الخفين. وكان في وسعها أن تجيبه بما بلغها، فهي أم المؤمنين ومن أعلم الناس بعبادة رسول الله ﷺ، لكنها قالت له: ائت علي بن أبي طالب، فإنه أعلم مني بذلك؛ فقد كان يسافر مع رسول الله ﷺ.

ذهب شريح إلى علي رضي الله عنه، فأخبره أن النبي ﷺ جعل للمقيم يومًا وليلةً، وللمسافر ثلاثة أيام ولياليهن. والخبر ثابت في صحيح مسلم وغيره .

ما أعظم أن تبلغ العالمة من الثقة بعلمها حدًّا يسمح لها بأن تقول: غيري أعلم مني في هذه المسألة.

لم تنظر عائشة إلى السائل بوصفه فرصةً لإثبات موسوعيتها، ولم تخش أن يؤدي إحالته إلى علي إلى نقص منزلتها. كانت تعرف أن المسألة تتصل بالسفر، وأن عليًّا صحب النبي ﷺ في أسفار، فكانت شهادته أقرب. وهذا هو العلم حين يتحرر من رغبة الاستحواذ: شبكة من الاختصاصات، يحيل بعض أهلها إلى بعض، ولا يدّعي أحد أنه البحر الذي تصب فيه جميع الأنهار.

كان بإمكانها أن تقول: أنا زوج النبي وأعلم بحاله؛ لكن البيت ليس السفر، والقرب في مجال لا يقتضي الإحاطة بكل مجال. وفي إحالتها إلى علي اعتراف بتوزع المعرفة بين الصحابة: ما عرفته هي من داخل الحجرة، عرف هو غيره من الطريق والغزو والسفر.

ولم تمنعها الأحداث التي وقعت لاحقًا بينها وبين علي من حفظ فضله العلمي. وهذا التفصيل يمنح الإحالة معنى أخلاقيًّا مضاعفًا: العلم عندها لا يعيد كتابة الكفايات وفق الخصومة، ولا يسمح للموقف السياسي أن يمحو ما يعرفه الإنسان من فضل مخالفه. من كان أعلم بالمسألة بقي أعلم بها، مهما تعقد التاريخ من حوله.

إن بعض الناس إذا اختلف مع عالم محا كل علمه، وإذا أحبه منحه المعرفة في كل شيء. أما عائشة فكانت تفصل بين الأبواب: قد تختلف مع الرجل في تقدير سياسي، ثم تحيل إليه في مسألة شرعية تعرف أنه أعلم بها. وهكذا يصون العقل نفسه من أن يصبح العلم تابعًا للمودة والخصومة.

لم يكن قولها: «هو أعلم مني» تنازلًا عن مكانتها؛ كان واحدًا من أقوى براهينها.

فالعالم الصغير يظن أن هيبته في كثرة ما يجيب، والعالم الكبير يعرف أن بعض هيبته في صدق الموضع الذي يقول فيه: سل غيري.

لَا يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ

وكان للنساء في مجلس عائشة حضور خاص؛ فهن يجدن عندها من الفهم بتجاربهن ما قد لا يجدنه عند غيرها، ويستطعن أن يسألنها عن دقائق الجسد والعبادة والأسرة دون أن يتحول الحياء إلى جهل دائم.

وسألت امرأة من الأنصار رسول الله ﷺ عن كيفية التطهر من الحيض، فأجابها، لكنها لم تفهم مراده من العبارة، وأعادت السؤال. استحيا النبي ﷺ من التصريح بالتفصيل، فاجتذبتها عائشة إليها وشرحت لها في خفاء كيف تتبع أثر الدم.

ثم قالت كلمتها التي أصبحت قاعدةً في أدب التعلم: «نِعْمَ النساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين». وردت القصة وكلمتها في صحيح مسلم.

لم تذم الحياء؛ فالحياء خلق إيماني، لكنها رفضت أن يُساء استعماله حتى يصبح حارسًا للجهل. ثمة حياء يصون الإنسان، وثمة خجل يمنعه من معرفة ما تصح به عبادته؛ الأول فضيلة، والثاني عجز يتخفى في ثوب الفضيلة.

وكانت عائشة واسطة البيان في ذلك الموقف: فهمت ما أراد النبي ﷺ، وفهمت حيرة المرأة، ثم نقلت المعرفة بعبارة تحفظ الحياء وتزيل الجهل. لم يكن المطلوب كسر الحاجز الأخلاقي، بل العثور على لغة تجمع بين الوضوح والستر.

وهذا جانب مركزي في عبقريتها التعليمية. إن بعض المعارف لا يكفي فيها أن يكون الجواب صحيحًا؛ ينبغي أن يصاغ بطريقة يستطيع السائل تلقيها دون حرج، وأن تُفهم حساسية المجال الذي تنتمي إليه. وقد كانت عائشة تعرف كيف تجعل العلم دقيقًا دون ابتذال، وصريحًا دون فظاظة، ونافعًا دون انتهاك.

ولولا هذا الحضور النسائي الواعي لبقيت أبواب واسعة من فقه المرأة أسيرة الإبهام. لكن نساء الأنصار سألن، وعائشة أجابت، والكتب حفظت، فصار السؤال الفردي علمًا للأمة كلها.

كانت المرأة تدخل الحجرة خائفةً من أن يكون سؤالها تجاوزًا للحياء، فتخرج وهي تعلم أن الحياء الصحيح هو الذي يقود إلى الطهارة، لا الذي يمنع من معرفة أحكامها.

التَّعْلِيمُ بِالْمَشْهَدِ لَا بِالْمُلَخَّصِ

امتازت أجوبة عائشة بأنها كثيرًا ما تستعيد المشهد بدل أن تقدم خلاصته المجردة. إذا سُئلت عن قيام النبي ﷺ لم تقل: كان كثير القيام فحسب، بل وصفت صلاته وطولها وترتيبها. وإذا سُئلت عن خلقه لم تقل: كان حسن الخلق وحدها، بل روت كيف كان في مهنة أهله، وكيف يختار الأيسر ما لم يكن إثمًا، وكيف لا ينتقم لنفسه.

كانت تعرف أن الصورة تعلم ما لا تعلمه القاعدة المنفردة. فقد يسمع الإنسان أن النبي ﷺ رحيم، لكن معنى الرحمة يتجسد حين يراه في روايتها يطيل الوقوف لتشاهد لعب الحبشة، أو يقول عند غيرة زوجته: «غارت أمكم»، ثم يصلح الإناء المكسور. ويسمع أنه متواضع، لكن التواضع يصبح مرئيًّا حين يعلم أنه كان يخدم أهله في بيته.

لم تكن تحول السيرة إلى مجموعة صفات معلقة؛ كانت تعيد الصفات إلى أجسادها وحركاتها وزمانها. ولهذا تعلم منها طلابها الحديث والسيرة والأخلاق في وقت واحد. الخبر الواحد قد يعطيهم حكمًا فقهيًّا، ويكشف لهم خلقًا نبويًّا، ويعلمهم طريقةً في التعامل مع النفس.

وكانت تجيب أحيانًا بقصة طويلة لأن اختصارها يقتل معناها. لم تكن السرعة عندها معيارًا للكفاءة، ولم تر أن خير الجواب أقصره دائمًا؛ فبعض المسائل لا تنكشف إلا إذا استُعيدت حركتها، وعُرف ما سبقها وما تلاها. والسرد عندها لم يكن ترفًا أدبيًّا، بل أداة من أدوات الدقة.

فالسياق الذي يحفظ الحديث من الخطأ ليس فكرة نظريةً؛ إنه القصة نفسها.

لَا تُسْرِعُوا بِالْحَدِيثِ حَتَّى يَضِيعَ

وكانت تنكر أن يُسرد الحديث بسرعة لا يتمكن معها السامع من ضبطه، وتذكر أن رسول الله ﷺ لم يكن يتابع كلامه بعضه إثر بعض على نحو يلتبس، بل كان يتكلم كلامًا فصلًا، لو أراد السامع أن يعد كلماته لاستطاع.

لم يكن اعتراضها على سرعة اللسان ذوقًا في الإلقاء فحسب؛ كان خوفًا على العلم. فاللفظ النبوي قد يتغير معناه بتقديم كلمة أو إسقاط قيد، والراوي الذي يملأ المجلس بكثرة الأخبار دون أن يمنح السامعين وقت الفهم قد يحقق إعجابهم ويضيع أمانتهم.

ثمة فرق بين كثافة المعرفة وازدحامها. الكثافة أن تحمل الكلمة معنىً واسعًا واضحًا، والازدحام أن تتدافع الكلمات حتى لا يثبت منها شيء. وكانت عائشة تريد من الراوي أن يؤدي كما كان رسول الله ﷺ يؤدي: بيانًا يمنح السامع القدرة على الفهم والحفظ.

لم يكن النبي ﷺ يتعالى على الناس بغموض العبارة، ولا يستعرض علمه بسرعة الكلام؛ كان البيان جزءًا من رحمته. وعائشة، التي عاشت إيقاع حديثه، لم تستطع أن ترى سنته تتحول إلى سيل لفظي يتباهى به المحدثون.

إن صناعة طالب العلم تحتاج إلى إبطاء في الموضع الذي ينبغي أن يبطئ فيه؛ لأن الفهم لا ينبت تحت عجلات العجلة. وربما حفظ طالب حديثًا واحدًا بحدوده خير له من أن يسمع مجلسًا كاملًا ثم تذوب الفروق في ذاكرته.

كانت عائشة تعلمهم أن الأمانة ليست في ألا تكذب فقط؛ الأمانة كذلك أن تؤدي الحق بطريقة تحميه من الالتباس.

تَعْلِيمُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْعَادَةِ وَالتَّشْرِيعِ

عاشت عائشة النبي ﷺ في بيته، ولذلك كانت قادرةً على التمييز بين الفعل الذي داوم عليه على وجه العبادة، والفعل الذي صدر عنه بحكم العادة، وما فعله لضرورة، وما تركه خشية أن يفرض على الأمة.

وهذا الفرق من أخطر الفروق في فهم السنة؛ لأن المحب قد يريد تقليد كل تفصيل رآه دون أن يسأل عن مرتبته، وقد يحول الفعل العارض إلى عبادة لازمة، أو يظن الترك المؤقت تحريمًا. لكن عائشة عرفت أن الوفاء للنبي ﷺ لا يكون بتسوية جميع أفعاله في الدلالة، بل بفهم كل فعل في مقامه.

كانت تشرح لماذا صنع، ومتى صنع، وهل عاد إليه، وهل تركه بعد ذلك، وهل كان الترك رحمةً بالناس. ومن خلال هذه الأسئلة انتقل الطلاب من صورة الفعل إلى فقه الفعل.

ولأنها حفظت اختلاف أحواله، قاومت ميل الإنسان إلى تحويل العادة النبوية إلى قالب جامد. كان الرسول ﷺ يصلي في أول الليل وآخره، ويسر ويجهر، ويصوم حتى يقال لا يفطر، ويفطر حتى يقال لا يصوم، وتتنوع أحواله بحسب ما يحقق العبودية والرحمة.

والسنة في هذا ليست ترددًا؛ إنها مرونة الهدي الكامل أمام تعدد أحوال البشر.

كان تعليمها يمنع الطالب من أن يأخذ لقطةً واحدةً من حياة النبي ﷺ ثم يجعلها الفيلم كله.

الْجَوَابُ بِقَدْرِ حَاجَةِ السَّائِلِ

لم تكن عائشة تقدم جوابًا واحدًا بالصيغة نفسها لكل إنسان؛ فالناس لا يسألون من مستوى واحد، ولا يحتاجون إلى القدر نفسه من البيان. قد يكون السائل من كبار الفقهاء فتجادله في الدلالة، وقد تكون امرأة لا تعرف حكمًا أساسيًّا فتشرحه لها بلطف، وقد يكون طالبًا يحمل أثر فكرة منحرفة فتسأله أولًا عن مصدر سؤاله.

إنها ترى الشخص داخل السؤال.

وهذه القدرة لا تأتي من الحفظ وحده، بل من معرفة النفس الإنسانية. فقد يعرف المعلم كثيرًا، لكنه يسكب كل ما عنده على رأس مبتدئ فيربكه، أو يجيب عالمًا بعبارة سطحية فلا تشفي إشكاله. أما عائشة فكانت تدرك أن التعليم ليس عرضًا لممتلكات المعلم، بل استجابةً لحاجة المتعلم.

وكانت تخاطب طلابها بعبارة «يا بني» أو «يا ابن أختي»، فتمنح المجلس دفء الأمومة دون أن تسقط هيبة العلم. كانت أمومتها للمؤمنين حقيقة شرعيةً، لكنها في التعليم تحولت إلى مناخ نفسي: السائل لا يقف أمام خصم ينتظر زلته، بل أمام أم تريد له أن يفهم.

والأم قد تشتد، لكنها لا تتشفى؛ وقد تعاتب، لكنها لا تطرد؛ وقد تصحح لفظًا، لكنها تريد لصاحب اللفظ أن يخرج أفضل مما دخل. ولذلك كانت شدتها في بعض المواضع جزءًا من رعايتها، لا نقيضًا لها.

تَلَامِيذُهَا لَمْ يَكُونُوا نُسَخًا مِنْهَا

لم تحاول عائشة أن تجعل عروة أو القاسم أو مسروقًا أو عمرة نسخًا تكرر عباراتها؛ بل منحتهم الأصول التي يستطيعون بها أن يصبحوا علماء مستقلين. حمل كل واحد منهم علمها إلى بيئته، وامتزج بما أخذه عن غيرها، ثم صار له تلاميذ واجتهادات.

وهذا هو النجاح الحقيقي للمعلم: ألا يبقى تلميذه محتاجًا إلى تكرار صوته، بل يكتسب ملكةً تمكنه من النظر. وإذا كانت الحجرة قد تحولت إلى جامعة، فلأن الداخلين إليها لم يخرجوا بحزم من الأخبار وحدها؛ خرجوا بطريقة في التثبت، وحس بالسياق، وأدب في الخلاف، وشجاعة في السؤال.

عروة الذي صححت له فهم آية الصفا والمروة صار من كبار فقهاء المدينة. والقاسم بن محمد أصبح أحد الفقهاء الذين حملوا علم المدينة. وعمرة بنت عبد

الرحمن غدت وعاءً موثوقًا لحديثها، يرجع إليه أهل العلم. ومسروق حمل رواياتها إلى العراق وهو يجلها ويعي موقعها.

لم يكن أثرها خطًّا واحدًا ينتقل من فم إلى أذن، كان شجرةً تتفرع.

وفي كل فرع بقي شيء من الحجرة: سؤال لا يخاف، وخبر لا يخرج بلا سياق، ودليل يقدم على الاسم، وسعة تحفظ اختلاف الهدي، وعالم لا يستحيي أن يقول: غيري أعلم.

الْعِلْمُ الَّذِي لَا يَسْتَعْبِدُ صَاحِبَهُ

كان يمكن للمكانة العلمية التي أحاطت بعائشة أن تصنع فيها شعورًا بالتفرد، فقد قصدها الكبار، وانتشرت فتاواها، وكثر تلاميذها، وعرف الناس فضلها. لكن العلم الذي أخذته عن رسول الله ﷺ كان يعيدها دائمًا إلى العبودية.

لم تر المعرفة ملكيةً خاصة، بل أمانةً يجب أن تصل. ولم تر التلميذ تابعًا يضيف إلى مجدها، بل حاملًا جديدًا لميراث النبي ﷺ. ولم تر السؤال تهديدًا لسلطتها، بل سبب وجود مجلسها.

ولهذا ظلت قادرةً على الإحالة إلى علي، وعلى مراجعة ما تقول، وعلى التوقف حيث لا تعلم، وعلى الاعتراف بتعدد فعل النبي ﷺ. لم تجعل منزلتها قيدًا يجبرها على امتلاك جواب واحد حاسم لكل أمر.

العلم الذي يستعبد صاحبه يجعله خائفًا على صورته، أما العلم الذي يحرره فيجعله خائفًا على الحقيقة.

وكانت عائشة حرةً بهذا المعنى: لا يضرها أن تقول لا أعلم، ولا ينقصها أن يكون غيرها أعلم بباب، ولا تحتاج إلى اختزال السنة حتى يبدو جوابها قاطعًا، ولا إلى إخفاء تنوع الروايات كي تحافظ على هيبة المجلس. كانت هيبتها في أمانتها ذاتها.

مِنَ الْمَعْلُومَةِ إِلَى الْمَنْهَجِ

إذا أردنا أن نعرف ما صنعته عائشة بوصفها معلمة، فلا يكفي أن نعد الأحاديث التي خرجت من حجرتها، ولا أسماء التلاميذ الذين أخذوا عنها؛ ينبغي أن نسأل: أي عقل خرج من ذلك المجلس؟

خرج عقل يعرف أن السؤال قد يحتاج إلى تصحيح قبل الجواب.

وعقل يعرف أن تعدد فعل النبي ﷺ قد يكون سعةً مقصودةً لا اضطرابًا.

وعقل يعرف أن المرأة تسأل عن أدق شؤون دينها، وأن الحياء لا يُستعمل ستارًا للجهل.

وعقل يعرف أن العلم موزع، وأن العالم قد يحيل إلى مخالفه إذا كان أعلم بالباب.

وعقل يعرف أن بطء البيان أمانة، وأن كثرة الكلام ليست دليلًا على كثرة الفهم.

وعقل يعرف أن السنة لا تحفظ بجمع ألفاظها وحدها، بل بمعرفة درجات الأفعال وسياقاتها ومقاصدها.

هذا هو الفرق بين ناقل الخبر وصانع الوعي. ناقل الخبر يمنحك جواب الأمس، أما صانع الوعي فيمنحك أداةً تواجه بها أسئلة الغد.

وقد كانت عائشة تفعل الأمرين معًا. تحفظ للأمة ما رأت، ثم تعلمها كيف ترى؛ تنقل ما سمعت، ثم تدربها كيف تسمع؛ تقدم الحديث، ثم تحرس الطريق الذي يصل به إلى العقل.

ولهذا لم تنته مدرستها بوفاة آخر تلاميذها. كل فقيه يجمع بين الروايات المتعددة كي يحفظ سعة السنة يحمل شيئًا من منهجها، وكل محدث يفرق بين صدق الراوي ووهمه يستعيد أدبها، وكل معلمة تجيب امرأةً بوضوح مصون تمد ظل حجرتها، وكل عالم يقول للسائل: اذهب إلى فلان فهو أعلم مني، يكرر واحدًا من أجمل دروسها.

لقد علمت الأمة من وراء ستر، لكن سترها لم يمنع نورها.

لم تكتب منهجًا تربويًّا، لكنها صنعت رجالًا ونساءً صاروا هم فصول ذلك المنهج. ولم تؤسس مدرسةً باسمها، لكن مدارس الفقه والحديث حملت أثرها. ولم تطلب من طلابها أن يحفظوا شخصيتها، بل أن يصونوا ما حملته عن رسول الله ﷺ.

كانت الحجرة تمتلئ بالسائلين ثم تفرغ، وتغيب الأصوات عند المساء، لكن شيئًا غير منظور كان يخرج منها كل يوم: عقل جديد تعلّم أن الإيمان لا يخشى السؤال، وأن السنة لا تضيق بالتنوع، وأن العالم لا يكبر بادعاء الإحاطة، بل بالأمانة التي يعرف بها موضع قوله وموضع صمته.

ومن تلك العقول التي صنعتها عائشة امتد ميراث النبوة إلى الأجيال.

فلم تعد هي وحدها تحفظ الخبر، لقد علمت الأمة كيف تحرسه.

الْفَصْلُ السَّادِسُ

الْعَقْلُ الْمُوسُوعِيُّ: حِينَ اجْتَمَعَ الْفِقْهُ وَالشِّعْرُ وَالطِّبُّ وَمَعْرِفَةُ النَّاسِ

ليست الموسوعية أن تتراكم المعلومات في الذهن حتى يصبح مستودعًا ضخمًا لأشياء لا يربط بينها رابط، فقد يحفظ الإنسان أبوابًا كثيرةً، وتبقى علومه متجاورةً لا متفاعلة، كأن كل معرفة تسكن غرفةً مغلقةً لا يصل إليها نور الغرف الأخرى. الموسوعية الحقيقية قدرةٌ على رؤية الصلات: أن تخدم اللغة فهم النص، ويضيء التاريخ حركة المجتمع، وتعين معرفة النفس على الفقه، ويحفظ الشعر ذاكرة الناس، وترد الخبرة الطبية الألم الإنساني إلى أسبابه الممكنة.

وكان عقل عائشة رضي الله عنها موسوعيًّا بهذا المعنى؛ لم يكن حشدًا من المعارف المتفرقة، بل نسيجًا تتساند خيوطه. كانت فقيهةً لأن لديها نصًّا وذاكرةً ولسانًا ومعرفةً بالواقع؛ وكانت محدثةً لا تفصل الرواية عن طبائع البشر؛ وكانت راويةً للشعر لا تستعمله ترفًا، بل وعاءً للغة والتاريخ والحكمة؛ وكانت تعرف من الخبرة الطبية ما التقطته من أفواه الناس ورعايتها للنبي ﷺ، فلا يمر بها علم نافع ثم تتركه يتبدد.

لم تكن صاحبة تخصصات حديثة بالمعنى الذي نعرفه اليوم؛ فلم يكن في المدينة كليات للطب والأدب والفقه منفصلةً، ولم تكن المعرفة قد انقسمت

إلى جزر لها حدودها ومصطلحاتها ومؤسساتها. كان العالم في ذلك الزمن يتكون من اتساع السماع، وقوة الحفظ، ودقة الملاحظة، وكثرة المخالطة، والقدرة على استخراج المعنى من التجربة.

وفي هذا العالم برزت عائشة عقلًا مفتوح النوافذ.

شهد لها عروة بن الزبير، وهو ألصق الناس بعلمها وأطولهم صحبةً لمجلسها، بسعة معرفتها في الفقه والشعر والطب. وشهد مسروق أن كبار أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يسألونها عن الفرائض. وشهد موسى بن طلحة أنه لم ير أحدًا أفصح منها. لم تكن هذه شهادات تعظيم عاطفي؛ كان أصحابها قد جالسوها واختبروا علمها ورأوا كيف تنتقل من باب إلى باب دون أن تفقد دقتها أو بيانها.

إنها أمامنا لا بوصفها عقلًا يعرف أشياء كثيرةً فقط، بل عقلًا يستطيع أن يمنح كل معرفة موقعها من رؤيته الكبرى للإنسان والوحي والحياة.

الْفَصَاحَةُ الَّتِي تَفْهَمُ قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ

قال موسى بن طلحة: «ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة»، وجاء عنه وصفها بأنها كانت من أبلغ الناس وأفطنهم. وقد صحت الرواية في فصاحتها، وقُوّيت الرواية الجامعة بين بلاغتها وفطنتها .

ولم تكن فصاحتها مجرد سلامة في مخارج الحروف أو جزالة في اختيار الألفاظ؛ كانت ثمرة عقل يرى المعنى واضحًا قبل أن يصوغه. فكثير من

غموض العبارة ليس عجزًا في اللغة، بل غموض في الفكرة نفسها، فإذا لم يستبن المتكلم ما يريد، كثرت ألفاظه وهو يدور حول فراغ. أما عائشة فكانت كلماتها حادة الحدود، تعرف أين تبدأ الحجة وأين تنتهي، ومتى يكفي اللفظ القصير، ومتى يحتاج المعنى إلى قصة.

وحين سألها سعد بن هشام عن خلق رسول الله ﷺ قالت: «كان خُلُقه القرآن». عبارة وجيزة، لكنها تكاد تحمل السيرة كلها. لم تقل إنه كان صادقًا ورحيمًا وحليمًا وشجاعًا وكريمًا فحسب، ردت صفاته جميعًا إلى الأصل الذي جمعها، كأنها تقول: اقرأ القرآن، ثم انظر إلى هذه القيم وقد خرجت من الحروف إلى الحياة، تجد محمدًا ﷺ.

هذه ليست إجابةً جميلةً وحدها، إنها صياغة معرفية عالية. فقد نقلت السائل من تعداد الصفات إلى فهم المصدر الذي نظمها، ومن الجزئيات إلى الكل الذي يفسرها. لم يكن خلقه فضائل منفصلةً جمعها بالتدريب، بل استجابةً وجوديةً للوحي؛ يرضى لرضاه، ويسخط لما يسخطه، ويقف عند حدوده، ويجسد رحمته وعدله وصبره.

إن البلاغة هنا ليست زينةً أضيفت إلى المعنى، بل هي المعنى وقد بلغ أقصى تركيزه.

ولو احتاجت عائشة إلى التفصيل فصلت. فلما سألها سعد بعد ذلك عن قيام النبي ﷺ، وصفت له عدد الركعات وهيئتها وجلوسه وذكره وتسليمه

وصفًا دقيقًا. حُفظ عنها هذا الوصف المفصل في كتب السنة . فهي لا تختصر حيث يضيع التفصيل، ولا تفصل حيث تحمل الجملة الواحدة جوهر الجواب.

وهذه هي الفصاحة الناضجة: أن يكون طول العبارة بقدر حاجة المعنى، لا بقدر رغبة المتكلم في إظهار قدرته.

مِنْ أَيْنَ جَاءَهَا هَذَا اللِّسَانُ؟

نشأت عائشة في قريش، وبين قريش كانت العربية في صفائها، ثم تربت في بيت أبي بكر الذي عُرف بمعرفة الأنساب وأيام العرب وأخبار القبائل. لم تكن اللغة في طفولتها مادةً تدرسها، بل هواءً تتنفسه؛ تسمع الشعر والحكمة، وتعرف الفروق بين ألسنة الناس، وتلتقط طرائق العرب في الإيجاز والكناية وضرب المثل.

ثم انتقلت إلى بيت من أوتي جوامع الكلم ﷺ، فاجتمع لها صفاء العربية الموروثة ببيان النبوة. كانت تسمع الرجل الذي يقول كلمات قليلةً فتفتح للأمة أبوابًا من الفقه، ويربي بالعبارة القصيرة أجيالًا لم تولد بعد. رأت كيف يوضع اللفظ في موضعه، وكيف يمكن للكلمة أن تجمع حكمًا ورحمةً وصورةً في آن واحد.

وكان القرآن فوق ذلك كله يشكل ذائقتها وموازينها. لم يكن حفظها للآيات حفظًا لمادة الاستدلال وحدها؛ كان تشكيلًا لبنية البيان في نفسها. من

عاش طويلًا مع القرآن تعلم أن القوة ليست دائمًا في الإطالة، وأن الانتقال بين الصورة والحكم، وبين القصة والعبرة، يمنح الكلام حياةً لا تمنحها العبارة المسطحة.

لهذا لم تكن فصاحتها صناعةً مكتسبةً من باب واحد. أخذت من أبيها معرفة كلام العرب، ومن قومها سلامة اللسان، ومن الشعر سعته وصوره، ومن النبي ﷺ جوامع الكلم، ومن القرآن ذلك الميزان الذي يجعل العبارة نورًا يهدي، لا زخرفًا يطرب.

وحين اجتمعت هذه الروافد خرج صوتها مختلفًا: صوت امرأة تستطيع أن تخاطب العالم بحجة، والعامة بصورة، والسائل بجواب، والمجتمع بخطبة؛ وتظل في كل ذلك واضحةً قويةً لا تتكلف الغموض ولا تستعير هيبتها من تعقيد الكلام.

الشِّعْرُ: ذَاكِرَةُ الْعَرَبِ لَا زِينَةُ الْمَجَالِسِ

كان الشعر عند العرب أرشيفًا متنقلًا، يحفظ الأنساب والوقائع والأخلاق والحروب والحكمة، ويكشف دلالة الألفاظ قبل أن تمتلئ المكتبات بمعاجم اللغة والتاريخ. ومن عرف الشعر عرف جانبًا عميقًا من وجدان العرب، وعرف كيف ترى القبيلة نفسها وكيف تسجل ذاكرتها.

وكانت عائشة واسعة الرواية للشعر، تعرف جيده ورديئه، ولم تتعامل معه بوصفه خيرًا كله أو شرًّا كله. قالت: «الشعر منه حسن ومنه قبيح؛ خذ بالحسن ودع القبيح»، وذكرت أنها روت من شعر كعب بن مالك قصائد،

منها ما يبلغ أربعين بيتًا. روى البخاري هذا الأثر في «الأدب المفرد»، وحسّن أهل الحديث إسناده .

تظهر في عبارتها ملكتها النقدية نفسها: لا حكم على الفن باسمه، بل على مضمونه وأثره. الشعر كلام؛ حسنه حسن وقبيحه قبيح. فلا يُرفض لأن بعضه يحمل باطلًا، ولا يُقبل لأن الوزن والقافية كسواه ثوبًا جميلًا. ميزانها الأخلاقي لا يقتل الذائقة، وذائقتها لا تعطل الميزان.

وقد أعانها الشعر في أبواب كثيرة: تفهم به ألفاظ العرب، وتستشهد به في المعاني، وتقرأ من خلاله طبائع القبائل، وتحفظ به الحكم والتجارب. لم يكن بيت الشعر عندها قطعةً للزينة تعلقها على أطراف الكلام؛ كان شاهدًا لغويًّا أو أخلاقيًّا، وذاكرةً مركزةً لحياة كاملة.

وكانت قدرتها على حفظ القصائد الطويلة علامةً أخرى على اتساع ذاكرتها. لكن الأهم من كثرة المحفوظ هو الاختيار. قالت: خذ الحسن ودع القبيح؛ أي إن الذاكرة ليست صندوقًا يقبل كل ما يلقى فيه، بل عقل ينتقي. والمعرفة التي لا يرافقها نقد قد تتحول إلى حمل ثقيل؛ أما المعرفة المنتقاة فتغذي الروح واللسان.

وربما لهذا كانت بلاغتها بعيدةً عن الجفاف الفقهي؛ فالفقه الذي يعرف الشعر أقدر على فهم اللغة، والعقل الذي عرف صور العرب وأمثالهم أقدر

على مخاطبة وجدانهم. لم تكن عبارتها حكمًا مجردًا يهبط على الناس من علو، بل كلامًا يعرف طريقه إلى الذاكرة.

الْأَنْسَابُ وَأَيَّامُ الْعَرَبِ: فِقْهُ الْمُجْتَمَعِ قَبْلَ فِقْهِ الْحُكْمِ

لم تكن معرفة الأنساب عند العرب مجرد افتخار بالآباء، كانت خريطة المجتمع. من يعرف نسب الرجل يعرف موقعه من القبيلة، وعلاقاته وتحالفاته، وما وراء بعض مواقفه من تاريخ قديم. وكانت أيام العرب سجلًا لصراعاتهم ومواثيقهم وتحولاتهم، ومفتاحًا لفهم كثير من الأشعار والإشارات.

وقد أخذت عائشة من بيت أبي بكر نصيبًا واسعًا من هذه المعرفة؛ فقد كان أبوها من أعلم قريش بأنسابها وأخبارها. وكان عروة إذا تعجب من علمها بأيام الناس وأنسابهم رد الأمر إلى نشأتها، فهي ابنة رجل عُرف بهذا الباب.

لكنها لم ترث المعلومات وحدها، ورثت عينًا تقرأ المجتمع. عرفت أن الناس لا يتحركون في فراغ، وأن وراء الموقف نسبًا وذاكرةً ومصلحةً وخوفًا، وأن الحكم على الأحداث يحتاج إلى معرفة القوى التي صنعتها. وهذه المعرفة ستظهر في رؤيتها للشأن العام؛ فهي لا تتعامل مع الأمة كأفراد منفصلين، بل كقبائل وجماعات ومراكز تأثير وولاءات.

وقد أعانها علم الأنساب كذلك في نقد الأخبار. فالخبر الذي يخطئ في نسبة رجل أو زمن واقعة أو علاقة قبيلة قد ينهار من داخله أمام من يعرف شبكة المجتمع. وفي عالم يعتمد كثيرًا على الذاكرة الشفهية، تصبح معرفة الأنساب أداة تحقق، لا مادة فخر وحسب.

وهي معرفة تقود أيضًا إلى فهم البشر في امتدادهم؛ فالإنسان ليس لحظته وحدها، بل ابن بيت وتربية وتاريخ. وعائشة التي عرفت أثر بيت أبي بكر في نفسها كانت تدرك كيف تعمل البيوت في تشكيل أبنائها، وكيف تنتقل المكارم والمخاوف والعصبيات من جيل إلى جيل.

لم يكن علمها بالناس منفصلًا عن فقهها؛ فقد كانت تعرف أن النص يخاطب بشرًا لهم طبائع وسياقات، وأن المفتي الذي يجهل المجتمع قد يعرف الحكم في الكتب ثم يخطئ موضع تنزيله.

الْفَرَائِضُ: دِقَّةُ الْعَقْلِ فِي حِسَابِ الْحُقُوقِ

قال مسروق، حين سئل هل كانت عائشة تحسن الفرائض: إنه رأى كبار أصحاب محمد ﷺ يسألونها عنها. حُفظت هذه الشهادة في المصنفات الحديثية والتراجم .

والفرائض ليست بابًا يسيرًا من أبواب الفقه؛ إنها علم يحتاج إلى فهم النصوص، وضبط القرابات، ودقة الحساب، ومعرفة ما يطرأ على الأنصبة من اجتماع الورثة واختلاف أحوالهم. وهي فوق ذلك علم حقوق؛ فالخطأ فيه لا يبقى فكرةً في ذهن الفقيه، بل قد يأخذ مالًا من صاحبه ويدفعه إلى غير مستحقه.

أن يقصد كبار الصحابة عائشة في هذا الباب يعني أن عقلها لم يكن أدبيًّا فحسب، يتألق في البيان والصورة، بل كان قادرًا على الحساب والترتيب

وضبط الفروع. جمعت بين مرونة اللسان ودقة التقسيم، وبين حس الشعر وحدود الأنصبة.

وكثيرًا ما يصنع الناس تعارضًا متوهمًا بين العقل الأدبي والعقل التحليلي؛ كأن من رقَّت عبارته لا يحسن الحساب، أو من دق في الأحكام لا يتسع للجمال. أما عائشة فقد نقضت هذا الفصل: تحفظ القصيدة، وتفهم الفريضة، وتروي المشهد، وتستخرج الحكم.

وكان علم الفرائض متصلًا بمعرفتها بالأنساب؛ فالقرابة التي يضبطها النسب هي نفسها التي تترتب عليها حقوق الميراث. ما يبدو بابين منفصلين كان في عقلها متصلًا: معرفة الأسرة كما تشكلت في المجتمع، ومعرفة الحقوق التي رتبها الله داخلها.

ولم يكن سؤال الكبار لها أمرًا عابرًا؛ إنه اعتراف بأن الكفاية العلمية لا جنس لها. فباب الحساب والحقوق الذي قد يتوهم بعض الناس أنه من ميادين الرجال وحدهم كانت امرأة في صدر الإسلام مرجعًا يرجع إليه شيوخ الصحابة.

لم تطالبهم عائشة بالاعتراف بعقلها؛ جعلتهم دقة عقلها يسألونها.

الطِّبُّ: ذَاكِرَةُ الْمَلَاحَظَةِ وَرِعَايَةُ الْمَرِيضِ

تعجب عروة من معرفة خالته بالطب، وسألها من أين أخذتها. وفي الأخبار المروية عنها أنها كانت تسمع الناس يصف بعضهم لبعض العلاج فتحفظه، وأن وفود العرب كانت تقدم على رسول الله ﷺ في مرضه فتصف له أدويةً،

فتعي ما تسمع. وقد حفظت كتب التراجم أصل سؤال عروة وجوابها عن حفظ ما تسمعه من وصف الناس للعلاج .

ولا ينبغي أن نسقط على هذه المعرفة معنى الممارسة الطبية المؤسسية في عصرنا، أو نزعم أنها كانت طبيبةً بالمعنى المهني الحديث؛ فهذا تحميل للتاريخ مصطلحات لم يعرفها. لكنها امتلكت خبرةً طبيةً معتبرةً في بيئتها: تعرف وصفات العرب، وتلتقط أعراض الأمراض، وتحفظ ما يُقترح من علاج، وتراكم المعرفة بالملاحظة والرعاية.

لقد تعلمت الطب من الحاجة، لا من الترف. كان رسول الله ﷺ يمرض، وكانت الزوجة المحبة تريد أن تعرف ما يخفف ألمه. يجيء الناس بعلومهم وتجاربهم، فتسمع ولا تترك الكلام يمر. ربما سمع غيرها الوصفة ثم نسيها بانتهاء المجلس، أما هي فكان عقلها يلتقط المعرفة النافعة ويضمها إلى خزائنه.

وهذا اللون من التعلم يكشف عن فضول علمي منضبط؛ لم تقل إن الفقه والحديث يكفيانها عن معرفة البدن، ولم تر أن الدواء أمر دنيوي لا يستحق عناية العقل المؤمن. كانت تعلم أن الإنسان روح وجسد، وأن الرحمة بالمريض تحتاج إلى دعاء ودواء، وأن الخبرة الإنسانية النافعة تُسمع ممن جاء بها.

كما تكشف معرفتها الطبية عن قدرتها على الملاحظة. فالطب في بيئة قليلة التدوين يعتمد على الانتباه: ماذا أصاب المريض؟ ماذا تناول؟ كيف تغيرت

حاله؟ وما الذي نفعه؟ وهي الملكة نفسها التي جعلتها دقيقةً في وصف عبادة النبي ﷺ وحركاته، عين ترى التفاصيل ولا تمر عليها مستعجلةً.

كانت الملاحظة جسرًا بين علومها. بها حفظت هيئة الصلاة، وبها قرأت طبائع الناس، وبها تعلمت ما تعلمت من العلاج.

مَعْرِفَةُ النَّفْسِ: الْعِلْمُ الَّذِي لَا يُكْتَبُ فِي كِتَابٍ

وعاشت عائشة في بيت تلتقي عند بابه وفود القبائل، والسائلون، والمنافقون، والمؤمنون، والضعفاء، وأصحاب الحاجات، وأهل الغيرة والمنافسة. ورأت النبي ﷺ يخاطب كل إنسان بما يصلحه، ويعرف موضع اللين وموضع الحزم، ويسأل عن الغائب، ويلاحظ التغير في الوجوه.

ومن هذه المعايشة نمت لديها معرفة بطبائع النفس. لم تكن «علم نفس» بمصطلحه الحديث، لكنها كانت فطنةً تلتقط الانفعال من نبرة، وتفهم ما وراء العبارة، وتفرق بين السؤال الذي يريد العلم والسؤال الذي يخفي اتجاهًا، وتعرف كيف يُقال الجواب حتى يبلغ صاحبه.

وقد حفظت عن النبي ﷺ حركات دقيقة تكشف قوة ملاحظتها: وصفت دخول فاطمة رضي الله عنها ومشيتها، وقالت إنها ما رأت أحدًا أشبه سمتًا وهديًا ودلًّا برسول الله ﷺ منها، وروت كيف أسر إليها النبي ﷺ حديثًا فبكت، ثم أسر إليها آخر فضحكت. لم تحفظ الحدث الكبير وحده؛ حفظت المشية، والاستقبال، والجلوس، وتحول الوجه من البكاء إلى الضحك.

كانت تقرأ الإنسان في حركته.

ولهذا استطاعت أن تصف الحب والغيرة والخوف والحزن دون لغة زائفة. لم تتحدث عن النفس من خارجها؛ عاشت مشاعرها بشجاعة، ثم روتها بأمانة. تكلمت عن غيرتها، وعن فزعها في الإفك، وعن ألمها حين مات النبي ﷺ، وعن فرحها ببراءتها، وعن قلقها في أحداث الأمة.

إن الإنسان الذي يعرف مشاعره ولا يكذب بشأنها يصبح أقدر على فهم مشاعر الآخرين. أما من ينكر ضعفه فقد يشتد على ضعف الناس؛ ومن يعترف بإنسانيته يستطيع أن يرحم إنسانيتهم.

وكانت معرفتها بالنفس جزءًا من فقهها؛ لأن الأحكام لا تتحرك في فراغ، بل تدخل قلوبًا فيها رغبة وخوف وعادة. وقد تعلمت من النبي ﷺ أن التربية لا تكون بتحطيم هذه الطبائع، وإنما بتوجيهها. الغيرة لا تعالج بإنكار وجودها، والحزن لا يعالج بإدانة الباكي، والسؤال لا يعالج بإسكات الحائر.

من هنا كان خطابها قويًّا دون أن يكون آليًّا؛ يحمل حكم العالم وبصيرة من عرف البشر.

الْبَلَاغَةُ بِوَصْفِهَا قُوَّةً قِيَادِيَّةً

لم تكن الفصاحة عند عائشة شأنًا أدبيًّا خاصًّا؛ كانت قدرةً على تشكيل الموقف العام. فالكلمة في لحظات التحول قد تجمع جماعةً أو تفرقها، وتمنح الناس تفسيرًا للحدث، وتحدد لهم موضع الصواب والخطأ. ومن يملك البيان يملك جزءًا من القوة، لأن الناس لا يتحركون بالوقائع وحدها، بل بالصورة التي تُروى لهم عن الوقائع.

كانت عائشة تعرف كيف تبني حجتها، وتنتقل من المقدمة إلى النتيجة، وتستدعي القرآن والحديث والتاريخ، وتضع المعنى في عبارة تحفظها الذاكرة. ولذلك لم يكن حضورها في الشأن العام ممكنًا بعلمها وحده، كان بيانها الجسر الذي نقل ما في عقلها إلى الناس.

وقد شهد موسى بن طلحة لها بالفصاحة والفطنة معًا، وهما إذا افترقا ضعف أثر كل منهما. الفصاحة بلا فطنة قد تصنع خطيبًا يزين الخطأ، والفطنة بلا بيان قد تحبس المعنى في عقل صاحبه. أما هي فاجتمع لها أن ترى وأن تقول.

وسيظهر هذا الاجتماع في زمن الفتنة، حين خرجت إلى الناس تحمل موقفًا، وتتكلم بصفتها أمًّا للمؤمنين، وتواجه لحظةً تتزاحم فيها الروايات والمخاوف. وسواء أصاب الاجتهاد مآله أم لم يصبه، فإن حضورها نفسه يكشف عن شخصية لم تكن قابلةً للانزواء حين رأت أن عليها مسؤوليةً عامة.

كانت الكلمة عندها تكليفًا، ولذلك دفعت ثمنها حين دخلت بها قلب التاريخ.

مَوْسُوعِيَّةٌ لَهَا مَرْكَزٌ

على أن علوم عائشة لم تكن متناثرةً بلا قبلة. كان لها مركز يجمعها: الوحي.

عرفت الشعر، لكنها وزنته بالأخلاق. وعرفت الأنساب، لكنها لم تجعل النسب بديلًا عن التقوى. وعرفت الطب، لكنها لم تفصل أسباب الأرض عن التوكل على الله. وعرفت النفس، لكنها لم تحول أهواءها إلى شريعة.

وعرفت الفصاحة، لكنها جعلتها في خدمة المعنى. وعرفت الفرائض، فرأت في الحساب تنفيذًا لعدل الله.

الوحي لم يلغ معارفها الإنسانية؛ أعطاها ميزانًا ومقصدًا. وهذا هو الفارق بين موسوعية تجمع الأدوات وموسوعية تعرف لماذا تستخدمها. لم تكن تريد أن يقال إنها تعرف كل شيء، بل كانت كل معرفة عندها طريقًا إلى أداء أمانة أو رفع جهل أو حفظ حق.

ومن هنا جاء انسجام شخصيتها. لم تكن فقيهةً في مجلس، وشاعرة الذائقة في مجلس آخر، وذات خبرة بالطب في لحظة منفصلة؛ كان العقل نفسه يعمل في كل باب: يلاحظ، ويحفظ، ويميز، ويربط، ثم يصوغ ما عرفه في بيان واضح.

كانت قصيدة تحفظها تساعدها على فهم اللغة، ومعرفة اللغة تعينها على تفسير الآية، ومعرفة سبب النزول تمنعها من خطأ الاستنباط، ومعرفة الناس تمكنها من وضع الجواب في موضعه، وخبرتها بأحوال النبي ﷺ ترد الرواية إلى سياقها. هكذا تتصل العلوم في عقل حي.

مَكَانَتُهَا لَا تَحْتَاجُ إِلَى الْمُبَالَغَةِ

وقد شاعت في الثناء على عائشة عبارات لا تثبت عن النبي ﷺ، يتناقلها الناس لأن معناها يوافق ما عرفوه من علمها. لكن الشخصية العظيمة لا تحتاج إلى خبر ضعيف حتى تعظم، ولا يخدمها محبها إذا نسب إلى رسول الله ﷺ ما لم يصح عنه.

إن الثابت من سيرتها كافٍ: كبار الصحابة يسألونها عن الفرائض، وأبو موسى يشهد أنهم وجدوا عندها علمًا فيما أشكل عليهم، وعروة يعجب باتساع معرفتها، وموسى بن طلحة يشهد بفصاحتها، وكتب السنة تحفظ آلاف مروياتها واستدراكاتها.

لا نحتاج إلى أن نرفعها فوق بشريتها؛ يكفينا أن نراها كما كانت.

فالصدق معها شكل من أشكال الوفاء لها، وهي التي قضت حياتها تحرس صدق الرواية، وترد الوهم، وتعيد كل كلمة إلى موضعها. لا يليق بمنهجها أن نصنع فضائلها من أخبار لم تثبت، بينما فضائلها الصحيحة أوسع من أن يحيط بها مديح.

لقد كانت عالمةً لا تحتاج إلى أسطورة، وفصيحةً لا تحتاج إلى زخرف، وعقلًا كبيرًا لا يحتاج إلى أن ننقص عقول الآخرين كي يظهر.

الْعَقْلُ الَّذِي لَمْ يُغْلِقْ نَافِذَةً

ربما كان سر موسوعية عائشة أنها لم تغلق نافذةً يدخل منها علم نافع. سمعت القرآن فحفظته، وعاشت السنة فوعتها، وسمعت الشعر فانتقت حسنه، وعرفت أنساب العرب من أبيها، وأصغت إلى وصف العلاج فحفظته، وخالطت الناس فعرفت طبائعهم، وسُئلت في الفرائض فأجابت بدقة.

كانت الأشياء عندها قابلةً لأن تصبح معرفة؛ لأن عقلها كان حاضرًا.

وكثير من الناس يمرون بالأحداث نفسها، لكنهم لا يخرجون منها بعلم؛ يرون ولا يلاحظون، ويسمعون ولا يصغون، ويعيشون التجربة ثم تذهب كما جاءت. أما عائشة فكانت الحياة تدخل ذاكرتها محملةً بتفاصيلها، ثم تخرج منها فقهًا أو روايةً أو حكمة.

وهكذا اجتمع فيها ما يبدو متباعدًا: صرامة الفقيه، وذاكرة المحدث، وذائقة الأديب، ودقة الحاسب، وملاحظة صاحب الخبرة الطبية، وفطنة من يعرف النفس. ولم يكن هذا الاجتماع ازدحامًا، بل تكاملًا؛ كل جانب يصحح الآخر ويمنحه ما ينقصه.

فلو كان لديها الفقه دون الشعر ربما ضاق بيانها؛ ولو كان الشعر دون الوحي ربما تحول إلى افتتان باللفظ؛ ولو كانت الذاكرة دون النقد لحفظت ما تسمع دون تمييز؛ ولو كان النقد دون الخشية ربما صار استعلاءً؛ ولو كانت الفصاحة دون المعرفة لكانت ضجيجًا جميلًا.

لكن الله جمع لها من الملكات ما جعل كل قوة تحرس أختها.

ولهذا لم تكن عائشة مجرد امرأة تعرف علوم عصرها، بل عقلًا يريك كيف تتوحد المعرفة حين يكون لها مركز أخلاقي وروحي. كان الوحي شمس ذلك النظام، تدور حوله المعارف دون أن تفقد خصائصها، وتأخذ منه اتجاهها دون أن تنطفئ.

ومن هذا العقل الموسوعي خرج بيان سيؤثر في الأمة، ورأي سيدخل ساحتها العامة، واجتهاد سيقوده الشعور بالمسؤولية إلى واحدة من أعقد لحظات التاريخ الإسلامي.

فالفصاحة التي صنعت العالمة كانت تستعد لتصنع صاحبة الموقف.

وهناك، في زمن الفتنة، ستخرج الكلمة من أمان الحجرة إلى اضطراب العالم.

الْفَصْلُ السَّابِعُ

الْإِفْكُ: حِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ دِفَاعًا عَنْ قَلْبٍ مُحَاصَرٍ

هناك آلام تقع على الإنسان من خارج صورته، يفقد مالًا أو بيتًا أو عزيزًا، فيعرف موضع الجرح ويستطيع أن يشير إليه. وهناك ألم يدخل إلى اسمه نفسه، فيصيب صورته في أعين الناس، ويمد يده إلى أخص ما يملك من كرامة، حتى يشعر البريء أن جسده ما يزال في مكانه، لكن شخصًا آخر مشوهًا صار يمشي بين الناس حاملًا اسمه.

وكانت حادثة الإفك من هذا اللون الذي لا يجرح طرفًا من حياة الإنسان، بل يحاصر وجوده كله. لم تكن إشاعةً عابرةً عن امرأة مجهولة في أطراف المدينة، بل طعنًا في أم المؤمنين، وفي بيت رسول الله ﷺ، وفي صفوان بن المعطل رضي الله عنه، وفي المجتمع الذي أراد الوحي أن يبنيه على الطهارة والثقة وصيانة الأعراض.

والإفك في أصل معناه قلب الحقيقة عن وجهها، فلا يكتفي الكاذب بأن يضيف إلى الواقع شيئًا لم يقع، بل يقلب البراءة تهمةً، والفضيلة ريبةً، والمشهد العادي جريمةً. وهذا ما صنعه أهل الإفك: أخذوا واقعةً بريئةً واضحة التفاصيل، ثم أعادوا تركيبها داخل خيال مريض، حتى صار الكذب في ألسنتهم قصةً تتداول، وصارت المرأة التي لم تعلم بما يقولون آخر من يصل إليه الخبر.

الْفَرَاغُ الَّذِي دَخَلَتْ مِنْهُ الشَّائِعَةُ

خرجت عائشة رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ في إحدى غزواته بعد نزول الحجاب. وكانت تُحمل في هودجها، فلما كان الجيش قريبًا من المدينة وأُذن بالرحيل، خرجت لبعض شأنها، ثم عادت فاكتشفت أن عقدًا لها قد انقطع. رجعت تبحث عنه، وفي أثناء غيابها حمل الرجال هودجها ووضعوه على البعير وهم يظنون أنها فيه؛ فقد كانت خفيفةً، فلم يشعروا بغيابها.

عادت إلى موضع الجيش فلم تجد داعيًا ولا مجيبًا. رأت أن الصواب أن تبقى في مكانها، لأنهم متى افتقدوها رجعوا إليها. جلست تنتظر، فغلبتها عيناها فنامت.

وكان صفوان بن المعطل رضي الله عنه قد تأخر عن الجيش، فجاء فرأى سواد إنسان، فعرف عائشة؛ إذ كان قد رآها قبل نزول الحجاب. استرجع حين عرفها، فاستيقظت على قوله، وخمرت وجهها بجلبابها. أناخ راحلته، فركبت، ثم انطلق يقود بها حتى لحقا بالجيش في شدة الظهيرة.

تقول عائشة في روايتها الصريحة: والله ما كلمها بكلمة، ولا سمعت منه غير استرجاعه.

كان مشهدًا يستطيع القلب السليم أن يقرأه كما وقع: امرأة تخلفت عن الجيش، ورجل وجدها فردها إلى أهلها. لكن القلب الذي يبحث عن الفتنة لا يحتاج إلى دليل؛ يحتاج فقط إلى فراغ يملؤه بالظن. وما إن ظهرت عائشة على الراحلة وصفوان يقود بها حتى وجد النفاق مادته.

تولى عبد الله بن أُبيّ بن سلول كِبر الإفك. لم يكن يملك شاهدًا، ولا كلمةً سمعها، ولا فعلًا رآه، لكنه كان يملك رغبةً في أن يصيب رسول الله ﷺ في بيته، ويشق المجتمع من داخله. والإشاعة الخبيثة لا تولد دائمًا من التباس صادق، قد يصنعها إنسان يعرف أنها كذب، ثم يسلمها إلى ألسنة لا تعرف أصلها، فتمنحها كثرتها مظهر الحقيقة.

خرجت الكلمة من فم صاحب هوى، ثم تلقفتها أفواه متعددة. لم يعد كل من يرددها يعرف من بدأها، ولا على أي دليل قامت؛ صارت تُروى لأن الناس يروونها، ويصدقها بعضهم لأنهم سمعوها من أكثر من لسان. هكذا يصنع التكرار للكذب سلطةً زائفة: لا يضيف إليه برهانًا، لكنه يرهق النفس بكثرته حتى يبدو كأن شيوعه دليل وجوده.

والرواية المطولة للحادثة، بتفاصيل غيابها والعقد وعودة صفوان وشيوع الإفك ونزول البراءة، ثابتة في الصحيحين. وهنا نص الحديث وشرحه .

آخِرُ مَنْ عَلِمَ بِالْإِفْكِ كَانَ الْمُفْتَرَى عَلَيْهَا

قد يكون من رحمة الله بالإنسان ألا يعلم فورًا بكل شر يقال فيه؛ فالمسافة بين وقوع الأذى ووصول خبره تمنحه أيامًا من العافية لا يدرك قيمتها إلا حين تنتهي. قدمت عائشة المدينة، ثم مرضت نحو شهر، والناس يخوضون فيما يخوضون، وهي لا تعلم.

لكن قلبها التقط تغيرًا لم يستطع عقلها تفسيره. كانت تعرف لطف رسول الله ﷺ بها إذا مرضت، فلما وقع الإفك صار يدخل فيسلم ويسأل: «كيف تيكم؟»، ثم ينصرف. لم يتهمها، ولم يسمع منها ما يريب، وقد أعلن أنه ما علم على أهله إلا خيرًا، لكن الوحي تأخر، وثقل الخبر على البيت والمدينة، فلم تجد منه الحرارة التي ألفتها.

إن المحب يعرف الفارق بين العبارة وحرارتها. قد تكون الكلمات نفسها قريبةً من المعتاد، لكن النبرة تغيّرت، أو الإقامة قصرت، أو العين لم تعد تطمئن كما كانت. شعرت عائشة أن شيئًا يقف في المسافة بينها وبين النبي ﷺ، لكنها لم تعرف اسمه.

كان المرض في جسدها، والغموض في قلبها، والإشاعة تسير خارج الغرفة.

ثم خرجت ليلةً مع أم مسطح، فعثرت أم مسطح في ثوبها، وقالت: تعس مسطح. فأنكرت عليها عائشة: أتسبين رجلًا شهد بدرًا؟

تأمل معدنها في تلك اللحظة: تدافع عن رجل في غيبته، بينما كان هو قد دخل فيمن تكلموا في عرضها، وهي لا تعلم. تحفظ له سابقة بدر، ولا تسمح لأمه أن تدعو عليه. كانت تحرس فضل الرجل الذي لم يحرس حرمتها.

قالت لها أم مسطح: أوَلم تسمعي ما قال؟

قالت عائشة: وما قال؟

وهناك وصلت الكلمة إلى صاحبة الجرح.

كانت المدينة تعرف، ورسول الله ﷺ يعرف، وأبواها يعرفان، والناس يتناقلون، أما هي فلم تكن تعرف لماذا تغيرت الوجوه من حولها. فلما أخبرتها أم مسطح ازداد مرضها، وعادت إلى بيتها، ثم استأذنت النبي ﷺ أن تذهب إلى أبويها لتستيقن الخبر.

سألت أمها: ماذا يتحدث الناس؟

حاولت أم رومان أن تخفف عنها، وذكرتها بأن المرأة الجميلة المحبوبة التي لها ضرائر كثيرًا ما يكثر الناس عليها. لكن التفسير لم يخفف الصدمة، قالت عائشة متعجبةً: سبحان الله، أوقد تحدث الناس بهذا؟

ومكثت ليلتها تبكي، لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم.

لم تكن تبكي لأن تهمةً قامت على دليل ثم عجزت عن دفعه، كانت تبكي لأن البراءة نفسها بدت عاجزةً أمام الخيال الذي صنعه الناس. ماذا يقول البريء حين تكون حجته أنه لم يفعل؟ وكيف يثبت عدمًا لم يقع؟ إن الكاذب يستطيع أن يختلق تفاصيل لا تنتهي، أما البريء فليس لديه إلا الحقيقة الواحدة، فإذا لم يصدقها الناس لم يجد قصةً بديلةً يقدمها.

حِينَ يَدْخُلُ الْكَذِبُ بَيْنَ الْقُلُوبِ

لم يصب الإفك عائشة وحدها، أصاب شبكةً كاملة من العلاقات. أصاب النبي ﷺ في أهله، وأصاب أبا بكر وأم رومان في ابنتهما، وأصاب صفوان في عرضه، وأصاب الصحابة في ثقتهم بعضهم ببعض، وكاد يوقظ العصبية بين الأوس والخزرج.

قام رسول الله ﷺ في الناس يعلن أنه لم يعلم على أهله إلا خيرًا، ولم يعلم على صفوان إلا خيرًا، وطلب أن يعذره المسلمون ممن بلغ أذاه في أهل بيته. فما إن تحرك النقاش حتى ثارت الحميّات القبلية، وكاد الحيان أن يقتتلا داخل المسجد، ورسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكنوا.

بدأت الشائعة بكلمة عن شخصين، ثم كادت تنتهي بصدام بين جماعتين.

وهذه طبيعة الإفك: لا يبقى في الموضع الذي ولد فيه. الكلمة التي يظن قائلها أنه رماها في عرض فرد قد تدخل إلى تاريخ قبيلتين، وتوقظ خصومات نائمةً، وتدفع المجتمع إلى الاصطفاف. فالعرض الشخصي جزء من السلم العام، ومن يتساهل في تشويه الإنسان لا يعرف أي نار يوقظها في الجماعة.

لقد كشفت الحادثة هشاشة المجتمع أمام الخبر المثير. كان الصحابة يعيشون في مدينة الوحي، ورسول الله ﷺ بينهم، ومع ذلك استطاعت كلمة منافق أن تجد من يحملها. فالقرب من النور لا يلغي قابلية النفس للخطأ ما لم تراقب نفسها، والمجتمع المؤمن لا يتحول إلى مجتمع معصوم؛ إنه يحتاج في كل لحظة إلى أخلاق تحميه من نفسه.

ولهذا لم ينزل القرآن ببراءة عائشة وحدها، بل نزل يعيد تربية المجتمع كله. كانت البراءة قلب الآيات، لكن حول القلب بُني دستور للكلمة: كيف يسمع المؤمن؟ وكيف يظن؟ وماذا يطلب من الدليل؟ وما حجم الجريمة حين يتكلم الإنسان بما لا يعلم؟

بَيْنَ الْبَحْثِ عَنِ الْحَقِيقَةِ وَالْعَجْزِ عَنِ الْغَيْبِ

تأخر الوحي، وكان رسول الله ﷺ بشرًا لا يعلم الغيب إلا ما أطلعه الله عليه. لم يستطع أن يستبق حكم السماء، ولم يجعل حبه لعائشة وحيًا من عند نفسه. استشار أسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وسأل بريرة عما تعلم من أمرها، وسأل زينب بنت جحش.

أما أسامة فأشار بما يعلمه من براءة أهل النبي ﷺ، وقال: هم أهلك، ولا نعلم إلا خيرًا. وأما علي فأشار بأن يسأل الجارية، لأن من يخدم البيت قد يرى من تفاصيله ما لا يراه غيره، ولم يقل إنه علم عليها سوءًا. وسُئلت بريرة فقالت إنها لم تر على عائشة أمرًا تكرهه، سوى أنها فتاة صغيرة تنام أحيانًا عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله.

وسأل النبي ﷺ زينب بنت جحش، وكانت تنافس عائشة في المنزلة عنده، فقالت في ورع عظيم: أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيرًا.

هنا امتحن الإفك أخلاق الناس، لا معلوماتهم وحدها. كان في إمكان زينب أن تجد في التهمة فرصةً لمنافِسة تؤلم غيرتها، لكنها آثرت الله على حظ النفس، وشهدت بما تعلم. قالت عائشة عنها إن الله عصمها بالورع.

ما أرفع الورع حين يحمي الإنسان من استثمار مصيبة خصمه.

لم يكن التحقيق في الأمر إذلالًا لعائشة، بل كان تعاملًا مع خبر هز المجتمع في زمن تأخر فيه الوحي. والفرق عظيم بين السؤال الذي يريد الوصول إلى الحق

والسؤال الذي يصنع التهمة. سأل النبي ﷺ من يعرفونها، فكانت الشهادات كلها خيرًا؛ لكنه بقي ينتظر الفصل الذي لا يداخله احتمال.

كان الألم شديدًا لأن السماء لم تجب سريعًا. غير أن هذا التأخر نفسه كشف القلوب، وأظهر المنافق، واختبر الورع، وأبان خطر الشائعة، ثم جعل نزول البراءة حدثًا لا يخص البيت وحده، بل يعيد بناء المجتمع.

حِينَ عَجَزَ الْأَبَوَانِ عَنِ الْجَوَابِ

دخل رسول الله ﷺ على عائشة بعد أن مكث زمنًا لا يجلس عندها، وكان أبواها معها، وامرأة من الأنصار تبكي لبكائها. جلس وتشهد، ثم قال لها: لقد بلغني عنك كذا وكذا؛ فإن كنت بريئةً فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه.

كان كلام نبي لا يملك أن يدعي علم ما لم يوح إليه، ولا يغلق باب التوبة على من أذنب، ولا يمنح الظن منزلة اليقين. لكنه وقع على قلبها في أشد ساعاتها ضعفًا.

فلما انتهى من كلامه انقطع دمعها حتى لم تعد تحس منه قطرة. طلبت من أبيها أن يجيب عنها رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: والله ما أدري ما أقول. وطلبت من أمها أن تجيب، فقالت: والله ما أدري ما أقول.

كان الأب الصديق، وكانت الأم الأقرب، لكنهما وقفا عاجزين أمام ضخامة الموقف. بعض الآلام لا يستطيع أحب الناس أن يتكلم فيها بدل

صاحبها، يصل الإنسان إلى لحظة لا يبقى له فيها إلا صوته، أو الصمت الذي يضعه بين يدي الله.

تكلمت عائشة، وهي فتاة حديثة السن، بكلام يكشف نضجًا نفسيًّا شديدًا. قالت إنها عرفت أن القوم سمعوا الحديث حتى استقر في نفوسهم وصدقوا به؛ فإن قالت إنها بريئة، والله يعلم أنها بريئة، فلن يصدقوها، وإن اعترفت بأمر لم تفعله صدقوها.

لقد شخصت آلية الشائعة بدقة: حين يستقر الخبر في النفس لا يعود السامع يبحث عن الحقيقة، بل يعيد تفسير كل كلام بما يثبت ما صدقه. إنكار البريء يصبح عنده إصرارًا، وصمته يصبح ارتباكًا، وبكاؤه يصبح اعترافًا خفيًّا. لا توجد حركة يستطيع المتهم أن يقوم بها إلا وأعاد الظن تأويلها ضده.

ثم أرادت أن تستشهد بقول يعقوب عليه السلام، فلم تستحضر اسمه من شدة ما أصابها، فقالت: لا أجد لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾.

أخطأت الاسم وأصابت الملجأ.

لم يكن عقلها في تلك اللحظة يؤدي امتحانًا في أسماء الأنبياء، كان قلبها يبحث في القرآن عن موضع يقف فيه. وجدت يعقوب الذي واجه خبرًا لا يطمئن إليه، ولم يملك كشف الحقيقة فورًا، فاختار الصبر والاستعانة بالله. استعارت موقفه لا لتساوي بين القصتين، بل لأنها وجدت في عبارته اللغة الوحيدة التي تسع عجزها.

ثم تحولت واضطجعت على فراشها.

لقد قالت ما عندها، ولم يعد لديها ما تضيفه. حين تعجز اللغة البشرية عن رد التهمة، يبقى علم الله. وحين تضيق محكمة الناس عن البراءة، يفتح المؤمن نافذته إلى السماء.

لَمْ نَتَوَقَّعْ أَنْ يَتْلُوَ النَّاسُ بَرَاءَتَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

كانت عائشة تعلم من نفسها البراءة، وترجو أن يري الله رسوله رؤيا يبرئها بها؛ لكنها قالت إن شأنها كان أحقر في نفسها من أن ينزل الله فيها قرآنًا يتلى. لم تكن تتخيل أن ألمها الصغير في تقديرها سيصبح جزءًا من كتاب الله، وأن المسلمين في المشارق والمغارب سيقرؤون براءتها في صلاتهم ومحاريبهم وكتبهم إلى قيام الساعة.

إن التواضع هنا مذهل: كانت زوجة رسول الله ﷺ وابنة الصديق، ومع ذلك لم تر نفسها أهلًا لأن يتنزل في شأنها وحي. لم تقل: لا بد أن تتدخل السماء لمكانتي؛ كانت ترجو رؤيا خاصةً تنهي الأزمة.

لكن الله أراد أمرًا أكبر من إنهاء حزن امرأة.

ما إن انتهت من كلامها واضطجعت حتى نزل الوحي على رسول الله ﷺ في مكانه. أخذته شدة الوحي، وانتظر من في البيت، ثم سُرّي عنه وهو يضحك، وكانت أول كلمة قالها: «يا عائشة، أما والله فقد برأك الله».

قالت لها أمها: قومي إليه.

فقالت عائشة: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله الذي أنزل براءتي.

لم يكن في جوابها جفاء تجاه رسول الله ﷺ، بل انفجار قلب خرج لتوه من حصار البشر إلى سعة حكم الله. فالذي برأها لم يكن دفاع زوج عن زوجته، ولا شهادة أب لابنته، ولا غلبة حجة بشرية؛ كان الله سبحانه، العليم بما خفي، قد أنزل فيها قرآنًا.

لقد ردت الحمد إلى مصدر البراءة، كما ردت في محنتها الشكوى إلى مصدر العلم.

ونزلت آيات سورة النور:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

برأت السماء عائشة، لكن الآيات لم تكتف أن تقول إنها بريئة؛ شرّحت الجريمة، وكشفت مسارها، ووزعت المسؤوليات، وأعادت تعليم المؤمنين كيف ينبغي أن يستقبلوا الخبر.

«عُصْبَةٌ مِنْكُمْ»: الشَّائِعَةُ شَبَكَةٌ لَا لِسَانٌ وَاحِدٌ

سمى القرآن الذين جاؤوا بالإفك «عصبة». لم يكن الكذب صوتًا منفردًا؛ كان شبكةً يتسلم بعضها من بعض. قد يكون واحد هو الذي تولى كبره، لكن

لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم. ليست المسؤولية واقعةً على المخترع الأول وحده، كل لسان اختار أن يحمل الكذبة أضاف إليها حياةً جديدة.

وهذا ميزان بالغ الدقة. كثير من الناس يعفي نفسه لأنه لم يصنع الخبر، ويقول: إنما نقلت ما سمعت. لكن النقل نفسه فعل أخلاقي؛ فاللسان لا يتحول إلى آلة بريئة لمجرد أن الكلمة ولدت في فم آخر. كل ناقل يقف عند اللحظة التي وصله فيها الخبر: إما أن يقتله بالتثبت، وإما أن يمنحه جسدًا جديدًا يعبر به إلى إنسان آخر.

ولذلك قال القرآن: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾. لم يُسوِّ بين من تولى كبر الإفك ومن جرى لسانه فيه، لكنه لم يعفِ أحدًا من نصيبه. العدالة تفرق في المقدار، ولا تلغي أصل المسؤولية.

كانت الشائعة موزعةً بين أفواه، فوزع القرآن الإثم بينها.

«ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا»

قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾.

لم يقل: ظنوا بإخوانهم خيرًا، مع أن المعنى صحيح؛ قال: ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾. كأن المجتمع المؤمن نفس واحدة، والعرض الذي يُنتهك في بيت من بيوته ليس عرضًا غريبًا عنه، بل جرح في ذاته. من صدق التهمة بلا دليل لم يسئ الظن بفرد بعيد فحسب، أساء الظن بالجسد الذي ينتمي إليه.

إن الأخوة ليست شعارًا عاطفيًّا، إنها طريقة في استقبال الخبر. أن تسأل نفسك: لو قيل هذا فيّ، أو في ابنتي، أو في بيتي، هل كنت أقبل أن يردده الناس بغير بينة؟ فإذا رفضته لنفسك ثم قبلته لغيرك، فقد انهارت الأخوة في الموضع الذي كان ينبغي أن تحميه.

ولم يطلب القرآن من المؤمنين سذاجةً تلغي إمكان وقوع الخطأ من البشر، طلب منهم ألا ينقلوا إنسانًا من أصل البراءة إلى قفص الاتهام بغير دليل. حسن الظن ليس إلغاءً للحقيقة، بل امتناع عن اختراع حقيقة بديلة حين لا نملك برهانًا.

وكان الواجب منذ اللحظة الأولى أن يقولوا: هذا إفك مبين.

لا أن يتذوقوا الخبر، ولا أن يسألوا عن تفاصيله بشهوة الفضول، ولا أن ينقلوه بصيغة «يقال» و«الله أعلم»، بل أن يضعوا أمامه حاجزًا أخلاقيًّا واضحًا.

«إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ»

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ﴾.

والإنسان في العادة يتلقى بأذنه، ويفحص بعقله، ثم يتكلم بلسانه؛ لكن القرآن قال: ﴿تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، كأن الكلمة قفزت من لسان إلى لسان دون أن تمر بالعقل أو الضمير. أداة الإخراج تحولت إلى أداة استقبال، فما إن يسمع المرء طرف الخبر حتى يبدأ نقله قبل أن يسأل نفسه: هل أعلم؟ هل ثبت؟ هل يجوز؟

إنها صورة مدهشة لسرعة الشائعة: ألسنة تتسلم من ألسنة، والعقول معطلة.

ثم كشف القرآن الخلل في ميزان الحجم: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ﴾. قد لا يشعر ناقل الإشاعة أنه ارتكب فعلًا كبيرًا؛ لم يضرب، ولم يسرق، ولم يقتل، إنما قال كلمات. لكنه ربما قتل بها طمأنينة بيت، وجرح عرض بريء، وهز ثقة مجتمع، وكاد يشعل اقتتالًا.

الإنسان يقيس الفعل بحجم الحركة التي قام بها؛ حركة اللسان صغيرة. أما الله فيقيسه بحجم الحق الذي انتهكه والأثر الذي صنعه.

ولهذا كان الإفك عظيمًا عند الله، ولو خرج من الفم بسهولة.

لِمَاذَا قَالَ اللهُ: «لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ»؟

ليس معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أن الألم لم يكن ألمًا، أو أن دموع عائشة لم تكن حقيقيةً، أو أن المجتمع لم يهتز. القرآن لا ينكر الجرح؛ لكنه يكشف أن الله يستطيع أن يخرج من الجرح بناءً لم يكن ليولد لولاه.

كان الإفك شرًّا في قصد صانعيه، وإثمًا على ألسنة ناقليه، لكنه تحول بتدبير الله إلى خير لعائشة ولبيت النبوة وللأمة: نزلت براءتها قرآنًا، وكُشف المنافق، ووُضعت قواعد التثبت، وعُرفت منزلة الأعراض، وتعلم المؤمنون أن الكلمة ليست هواءً.

الخير هنا ليس في الجريمة ذاتها، بل فيما صنعه الله بعد وقوعها. وهذا فرق يحفظ العدل، فلا نجد الألم، ولا نشكر الظالم على ظلمه، وإنما نحمد الله الذي لا يترك الشر يمتلك خاتمة القصة.

لقد أراد أهل الإفك أن يجعلوا اسم عائشة موضع ريبة، فجعل الله اسمها متصلًا بآيات البراءة. أرادوا أن يخفضوا منزلتها بالكلمة، فرفعها الوحي. أرادوا لحظةً من الفضيحة، فصارت الحادثة مدرسةً أخلاقيةً باقيةً ما بقي القرآن.

انقلب السهم على راميه، ولم تعد عائشة هي التي تحتاج إلى الدفاع عن اسمها، صار كل من يتلو سورة النور شاهدًا ببراءتها.

مِنَ الْعَدْلِ إِلَى الْفَضْلِ

وكان مسطح بن أثاثة، قريب أبي بكر ومن الفقراء الذين ينفق عليهم، قد خاض في الإفك. فلما أنزل الله براءة عائشة، قال أبو بكر إنه لن ينفق عليه بعد الذي قال في ابنته.

كان موقفًا مفهومًا، فالمال ماله، والذي نال من عرض ابنته رجل أحسن إليه. لكن القرآن أراد أن يرفع بيت الصديق من مقام العدل المجرد إلى مقام الفضل، فأنزل الله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فقال أبو بكر: بلى والله، إني أحب أن يغفر الله لي. وأعاد إلى مسطح النفقة، وقال إنه لا ينزعها منه أبدًا.

لم تلغ الآية بشاعة ما صنع مسطح، ولم تقل إن الأعراض رخيصة؛ فالآيات نفسها عظمت الجريمة. لكنها علمت أبا بكر أن خطأ الإنسان لا يمحو كل أوصافه الأخرى: ما يزال قريبًا، ومسكينًا، ومهاجرًا في سبيل الله. يُحاسب على ذنبه، لكن حاجته لا تزول، وسابقته لا تُمحى.

وما أعظم أن يستمر الإحسان إلى من شارك في جرح ابنتك، لا لأن الجرح صغير، بل لأن رجاء مغفرة الله أكبر.

كان الصديق يستطيع أن يقف عند حد حقه، لكن القرآن سأله: ﴿**أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ**﴾. نقل بصره من خطيئة مسطح إلى حاجته هو لمغفرة ربه. وحين رأى نفسه عبدًا يرجو العفو، استطاع أن يعفو.

هكذا لم تنته الحادثة بإدانة المذنبين فقط؛ انتهت بإعادة بناء قلوب المجروحين.

الْمِحْنَةُ الَّتِي عَمَّقَتْ بَصِيرَتَهَا بِالْكَلِمَةِ

خرجت عائشة من الإفك بريئةً كما دخلته، لكن الإنسان لا يخرج من المحنة كما دخلها. لقد عرفت ماذا تفعل الشائعة من داخل الجرح، ورأت كيف يستطيع خبر بلا دليل أن يغير دفء البيت، ويرهق الأب والأم، ويقسم المجتمع، ويمنح المنافق لحظة قوة.

وعرفت أن الحقيقة وحدها قد تحتاج إلى صبر طويل قبل أن تستعيد مكانها؛ فكون الإنسان بريئًا لا يعني أن ألمه سينتهي فورًا، ولا أن كل الناس سيرون براءته في اللحظة نفسها. وعرفت أن بعض المواقف يعجز فيها أقرب الناس عن الكلام، فلا يبقى إلا الله.

ولعل هذه التجربة عمقت في عقلها حساسيةً خاصةً تجاه دقة الرواية وخطر اللفظ؛ فهي لم تعرف خطأ الخبر من الكتب وحدها، بل عاشت شهرًا داخل أثره. حين كانت تستدرك بعد ذلك على راوٍ، أو تعيد قولًا إلى سياقه، لم تكن تتعامل مع الكلمات كمواد محايدة؛ كانت تعرف أن اللفظ إذا خرج عن موضعه قد يظلم إنسانًا ويغير حكمًا ويصنع تاريخًا كاذبًا.

لقد علّمها الإفك أن حراسة الحقيقة عبادة، وأن الصمت أمام الكذب قد يكون مشاركةً فيه، وأن الخبر لا يصبح بريئًا لأن ناقله قال: أنا لم أختلقه.

بَرَاءَةٌ أَعْلَى مِنَ التَّارِيخِ

مضت القرون، واختلفت الفرق، وحاول بعض أهل الأهواء أن يعيدوا فتح ما أغلقه القرآن، لكن عائشة لم تعد تحتاج إلى مؤرخ يدافع عنها؛ فقد تولى الله براءتها في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إن مقامها هنا ليس نتيجة انتصار رواية تاريخية على رواية أخرى، بل نتيجة نص قرآني محكم. قد يختلف الناس في بعض تفاصيل سيرتها، أو في اجتهاداتها السياسية، أو في فقه مسألة قالت بها؛ فهي بشر تجتهد. أما عرضها الذي برأه الله فليس ساحةً لاجتهاد البشر.

والتمييز بين الأمرين ضرورة للعدل: لا نحول براءتها إلى عصمة من الخطأ في كل شأن، ولا نحول اختلافنا مع اجتهاد بشري لها إلى جرأة على ما حسمه الوحي. أم المؤمنين بريئة بنص القرآن، وعالمة جليلة بآثار علمها، وبشر يصيب ويخطئ في اجتهاده.

لقد منحها القرآن براءةً لا تحتاج معها إلى صناعة صورة خارجة عن الإنسانية. كانت في الحادثة تبكي، وتمرض، وتغضب، وتعجز عن استحضار اسم يعقوب، وتطلب من أبويها أن يجيبا عنها؛ وهذا كله لا ينقص من عظمتها، بل يجعل نور البراءة أكثر قربًا من القلب. لم تكن تمثالًا لا يشعر، بل امرأةً داهمها الظلم، فلجأت إلى ربها.

وبقيت الآيات تقول لكل جيل إن كرامة الإنسان ليست مباحةً لفضول الجماعة، وإن الأخبار التي تمس الأعراض لا تُحمل بالأهواء، وإن المؤمن مسؤول عما يمنحه لسانه حياةً، وإن الظلم قد يملك أول القصة لكنه لا يملك خاتمتها.

أراد أهل الإفك أن يحاصروا عائشة بكلمة، ففتح الله لها في القرآن أفقًا لا ينغلق.

كانت قبل الإفك زوجة النبي ﷺ وعالمة بيت النبوة، ثم صارت بعده كذلك المرأة التي نزل الوحي يدافع عن براءتها، وصارت دموعها منهجًا للأمة في أخلاق التلقي، وصار ألمها سورًا يحمي أعراض المؤمنين.

ومن قلب تلك المحنة خرجت عائشة أشد معرفةً بالإنسان، وأعمق إدراكًا لخطر الكلمة، وأكثر حساسيةً تجاه ما تستطيع الفتنة أن تصنعه حين تتسلل إلى مجتمع من ثغرة الخبر.

غير أن الفتنة التي ستواجهها لاحقًا لن تكون كلمةً في عرضها وحدها، ستكون دمًا في جسد الأمة كلها.

وهناك ستخرج أم المؤمنين من الحجرة تحمل اجتهادها، ويخرج التاريخ من هدوئه حاملًا كل احتمالات المأساة.

الْفَصْلُ الثَّامِنُ

أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ فِي زَمَنِ الْفِتْنَةِ: حِينَ خَرَجَ الِاجْتِهَادُ إِلَى مَيْدَانٍ لَا تُطِيعُهُ النِّيَّاتُ

كانت عائشة رضي الله عنها قادرةً على أن تبقى في حجرتها، وأن تكتفي بما حملته من العلم، وأن تترك للرجال اضطراب السياسة وأثقال الحكم؛ فقد كان اسمها وحده مدرسةً، وكان طلابها يأتونها، وكانت أمومتها للمؤمنين محفوظةً دون أن تخرج إلى ساحة الخلاف. لكنها لم تفهم مكانتها امتيازًا يعفيها من مسؤولية الأمة، بل أمانةً تجعل هموم المسلمين تصل إليها وإن أغلقت الباب.

كانت تؤمن أن العلم الذي لا يتحول عند الحاجة إلى موقف قد يصير معرفةً باردةً تشاهد الجرح ولا تمد إليه يدًا. وحين قُتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وانفتحت أبواب الفتنة على مصاريعها، لم تر عائشة الحادثة انتقالًا عاديًّا في الحكم، بل رأت خليفةً قُتل مظلومًا في بيته، وحرمةً كبرى هُتكت، ودمًا إذا لم يُطلب بحقه سريعًا فقد يتحول إلى سابقةٍ تهدم هيبة الدولة وتغري كل خارج بالسيف.

تحرك فيها حس العدالة، وتحرك معها خوفها على الأمة.

لكن السياسة ليست دائمًا أرضًا تطيع القيم النبيلة؛ فقد يدخل الإنسان إليها حاملًا مقصد الإصلاح، ثم يجد نفسه داخل شبكة من القوى والقبائل والثارات والمعلومات الناقصة، فلا تعود النتائج بنت المقصد وحده. وفي ذلك

تكمن مأساة عائشة السياسية: لم تخرج تطلب مُلكًا، ولم تدّع لنفسها خلافةً، ولم تخرج تريد حرب علي رضي الله عنه؛ خرجت وهي ترى أن عليها واجبًا في إصلاح الشأن والمطالبة بدم عثمان، ثم انتهى المسير إلى معركةٍ لم يكن الدم فيها دم عثمان وحده، بل دم رجال من المؤمنين وقفوا في جهتين وهم يظنون أنهم يدافعون عن الحق.

إن شجاعة قراءة هذه التجربة لا تكون بتجميل كل خطوة فيها، ولا بتحويل الخطأ إلى جريمة تمحو العمر كله؛ بل بأن نرى كيف يمكن للنية الصادقة أن تدخل واقعًا أكبر من قدرتها، وكيف قد يكون الإنسان عظيمًا في فضله، جليلًا في قصده، ثم لا يكون اجتهاده هو الأقرب إلى الصواب.

الدَّمُ الَّذِي غَيَّرَ مَعْنَى السِّيَاسَةِ

لم يكن مقتل عثمان رضي الله عنه حادثةً منفصلةً يمكن للدولة أن تطويها بعد دفنه. كان قتل خليفة داخل المدينة، بعد حصار داره، إعلانًا عن دخول القوة المسلحة إلى قلب الشرعية. لم يعد الخلاف رأيًا يقال أو اعتراضًا يرفع؛ صار جماعاتٍ قادرةً على محاصرة رأس الدولة وقتله، ثم البقاء داخل المشهد السياسي الذي جاء بعده.

بويع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالخلافة في ظرف بالغ الاضطراب. لم تكن الدولة مستقرةً بين يديه، ولم يكن قتلة عثمان جماعةً واضحةً تقف في مكان واحد حتى يأمر بالقبض عليها؛ تداخلت الوجوه، واختلط الثائرون

بالقبائل والجند، وتوزعت المسؤوليات، وصار تنفيذ القصاص الفوري قادرًا على فتح حرب قبل أن تستعيد الخلافة سلطانها.

كان علي يريد القصاص لعثمان، ولم يكن يرضى بقتله؛ لكن رؤيته قامت على ترتيب مختلف: تثبيت أمر الدولة أولًا، ثم التحقيق والقصاص حين توجد قوة قادرة على تنفيذه دون أن تنهار الجماعة كلها. ومن وجهة نظره لم يكن تأخير القصاص تضييعًا للعدل، بل شرطًا ليصبح العدل ممكنًا.

أما عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم، فرأوا أن التأخير نفسه خطر؛ فالدم الذي لا يطلب سريعًا قد يبرد في ضمير الناس، وقد يزداد القتلة قوةً، وقد تُبنى الشرعية الجديدة فوق جريمة لم يُحاسب أصحابها. كانوا يخشون أن يتحول تثبيت الدولة قبل القصاص إلى تثبيت واقع شارك صانعو الفتنة في فرضه.

كان الطرفان يريدان عدلًا، لكنهما اختلفا في ترتيب الطريق إليه.

وهذا من أعقد ما تواجهه السياسة: لا يكون الصراع دائمًا بين قيمة ونقيضها؛ قد يكون بين توقيتين للقيمة نفسها. فريق يقول: لا قيام للدولة قبل القصاص، وفريق يقول: لا قصاص قبل قيام الدولة. كل واحد يرى في ترتيب الآخر بابًا لضياع الحق.

غير أن تساوي المقاصد العامة لا يعني تساوي الاجتهادين في الصواب. فقد كان علي رضي الله عنه الخليفة الذي انعقدت له البيعة، وكان أدرى بما تتيحه قدرة الدولة في تلك اللحظة، وكان تجنب الخروج المسلح أحفظ لوحدة الأمة وأبعد عن سفك الدم. ولهذا قرر أهل السنة أن عليًّا كان أقرب إلى الحق في

وقعة الجمل، وأن عائشة وطلحة والزبير كانوا مجتهدين أخطؤوا، فخُفظ لهم قصدهم وفضلهم، ولم يُجعل الخطأ صوابًا لمجرد صدوره عن عظماء.

وهذا الميزان هو العدل نفسه: لا سبّ ولا عصمة، ولا تشنيع ولا تبرير.

لَمْ تَخْرُجْ تَطْلُبُ سُلْطَانًا

من الظلم لعائشة أن تُقرأ حركتها كما لو كانت منافسةً على الحكم. لم تطلب أن تكون خليفةً، ولم تدّعِ أن لها حقًّا في الإمارة، ولم يكن مشروعها إقصاء علي لتجلس مكانه. كانت تتحرك بالسلطة المعنوية لأم المؤمنين، لا بطموح صاحبة عرش.

وهذا الفارق جوهري؛ فقد كانت تعرف أن موقعها في الأمة ليس منصبًا سياسيًّا، لكنه يحمل تأثيرًا سياسيًّا هائلًا. كلمتها تُسمع، وموقفها يحرك الناس، واسمها يجمع حوله من لا يجتمعون حول غيره. وكانت ترى أن هذه المكانة تفرض عليها أن تتكلم حين يُقتل خليفة وتضطرب الجماعة.

خرجت من مكة ومعها طلحة والزبير ومن انضم إليهم، وقصدوا البصرة؛ يريدون جمع الناس على طلب الإصلاح والقصاص. ولم تكن عائشة تسير على رأس جيش بصفتها قائدًا عسكريًّا يضع خطط القتال، بل كانت الرمز الأعلى لذلك التحرك، والصوت الذي يمنحه مشروعيته الأخلاقية، والأم التي ظن الخارجون معها أن حضورها يستطيع أن يرد الأمة إلى اتفاق.

لكن الرمز في السياسة قوة ذات حدين. فالمكانة التي تستطيع أن تجمع الناس تستطيع كذلك أن ترفع حرارة الصراع؛ لأن الخصوم لا يرون أمامهم

فـردًا، بـل يرون رمزًا تتجمـع حوله ولاءات واسـعة. وكلمـا عظمت منزلة الإنسان، عظمت الآثار التي تصنعها حركته، ولو لم يردها.

كانت عائشة تحمل اسم أم المؤمنين، ولذلك لم يكن خروجها كخروج فرد من الناس. وجودها وحده يحول الموقف إلى قضية تمس مشاعر الأمة، ويجعل التراجع أصعب، ويمنح الواقفين حولها استعدادًا أكبر للفداء.

ربمـا أرادت من أمومتهـا أن تكـون جسرًا للصـلح، لكن سـاحة الفتنـة استطاعت أن تجعل الجسر نفسه مركزًا للاشتباك.

عِنْدَ مِيَاهِ الْحَوْأَبِ: لَحْظَةُ التَّرَدُّدِ

وفي الطريق سمعت عائشة نباح الكلاب عند ماء، فسألت عن المكان، فقيل لها إنه الحوأب. فتذكرت قول النبي ﷺ لنسائه في شأن التي تنبح عليها كلاب الحوأب، وقالت إنها تظن نفسها راجعةً.

قال لها الزبير رضي الله عنه: ترجعين؟ عسى الله أن يصلح بك بين الناس. وأصل تذكرها الحديث عند الحوأب، ودعوة الزبير لها إلى مواصلة المسير رجاء الإصلاح، مروي بإسناد صحيح .

هذه اللحظة جديرة بأن نقف عندها طويلًا. لقد اضطرب يقينها بالمسير، وبرز أمامها تحذير قديم من رسول الله ﷺ، فكرت في الرجوع. لم تكن سائرةً خلف رغبة عمياء في المواجهة؛ كان ضميرها حاضرًا، يسأل ويخاف.

لكن حجة الإصلاح غلبت: ربما يكون حضورها هو الذي يمنع الدم، وربما تستطيع بما لها من مكانة أن تجمع الناس. إن كثيرًا من القرارات المأساوية لا يتخذها أصحابها لأنهم يريدون الشر، بل لأن أملًا في الخير يقنعهم بتجاوز علامة الخطر.

كان يمكن أن ترجع، وكان الرجوع سيغلق طريقًا من طرق الفتنة. وهذه حقيقة لا ينبغي أن يذيبها المديح. غير أن من السهل على قارئ يقف بعد اكتمال التاريخ أن يرى ما لم تره هي في لحظة القرار؛ نحن نعرف نهاية الطريق، أما هي فكانت تقف في منتصفه، يتجاذبها التحذير ورجاء الإصلاح.

لا يعفينا فهم ظرفها من نقد القرار، ولا يسمح لنا نقد القرار باحتقار صاحبه. إنما يجعلنا نرى الاجتهاد البشري كما هو: اختيارًا يقع تحت ضغط معلومات ناقصة، ومقاصد متعددة، وأصوات يثق بها الإنسان، ثم يكشف المستقبل ما لم يكن ظاهرًا في لحظته.

واصلت عائشة المسير، وبقي الحوأب بعد ذلك علامةً في ذاكرتها؛ ليس لأنه أثبت سوء قصدها، بل لأنه صار الموضع الذي كان يمكن للتاريخ أن يأخذ منه طريقًا آخر.

حُضُورٌ نِسَائِيٌّ لَا يَسْتَأْذِنُ الصُّوَرَ الْجَاهِزَةَ

يكشف خروج عائشة مقدار ما كانت تشعر به من مسؤولية عامة. لم تفهم أن كونها امرأة يعني أن قضايا الأمة لا تعنيها، أو أن العلم الذي حملته لا شأن

له بالعدل والدماء والحكم. كانت ترى نفسها أمًّا للمؤمنين، والأم لا تنظر إلى اقتتال أبنائها بوصفه شأنًا لا يخصها.

وحضورها يهدم التصور الذي يجعل المرأة في صدر الإسلام عقلًا معزولًا عن المجتمع. لقد كانت صاحبة رأي سياسي، وتقدير للأحداث، وقدرة على الخطابة والتعبئة، وكانت كلماتها تُسمع في مجالس الرجال والقبائل.

لكن الإنصاف يقتضي ألا نحول خروجها إلى شعار معاصر مجرد من مآله؛ فلا يقال إن الحادثة برهان على أن كل دخول في الصراع العام فضيلة بذاته. إن تجربتها تثبت أهلية المرأة للرأي والتأثير، لكنها تكشف في الوقت نفسه خطورة أن تدخل الرموز الدينية في الصدام المسلح، سواء كانت امرأةً أو رجلًا.

لم تكن العبرة أن عائشة خرجت فقط؛ العبرة كذلك فيما انتهى إليه خروجها.

فالفاعلية ليست قيمةً مستقلةً عن الحكمة، والشجاعة لا تعفي من سؤال المآل، وحسن النية لا يجعل كل أداة صالحةً. قد يكون الصمت جبنًا في موضع، ويكون الحركة غير المحسوبة بابًا للدم في موضع آخر. والمسؤولية الأخلاقية لا تقاس بحرارة الدافع وحدها، بل بقدرة الفعل على بلوغ الخير الذي يريده.

لقد كانت عائشة شجاعةً بلا شك؛ خرجت في ظرف يخاف فيه كثيرون، وخاطبت الناس، وتحملت ثقل الموقف. لكن الكتاب الذي يمدح شجاعتها

ينبغي أن يملك الشجاعة نفسها في القول: كان البقاء عن ذلك الخروج أحفظ للأمة وأقرب إلى الصواب.

وهذا لا ينتقص منها؛ بل يعيدها إلى إنسانيتها العظيمة التي تجعل تجربتها قابلةً للتعلم، لا مجرد صورة للتقديس.

الْبَصْرَةُ: حِينَ أَرَادَ كُلُّ فَرِيقٍ أَنْ يُصْلِحَ

دخلت عائشة ومن معها إلى البصرة، وتكلمت في الناس، وبيّنت مقصدها في طلب الإصلاح والقصاص لعثمان. وتحركت الولاءات داخل المدينة؛ فانضم قوم، ورفض قوم، وبقي آخرون حائرين بين حرمة أم المؤمنين وبيعة الخليفة علي.

ومن هذه اللحظة لم يعد الأمر رأيًا يقال؛ صار قوى متقابلةً وسلاحًا ورجالًا يتحركون. وهذا هو التحول الذي كثيرًا ما لا ينتبه إليه أصحاب المبادرات الأخلاقية: ما دام الموقف كلمةً يستطيع صاحبه ضبط حدودها، فإذا صار جماعةً مسلحةً دخلت فيه إرادات لا يملكها، وحسابات لا يعرفها، وأحقاد قديمة ترتدي ثوب قضيته.

خرج علي رضي الله عنه من المدينة قاصدًا العراق، والتقت القوتان قرب البصرة. وتشير روايات تاريخية إلى أن رسائل الإصلاح دارت، وأن عائشة أعلنت أنها إنما جاءت للإصلاح، وأن الأمل في تجنب القتال كان حاضرًا.

وتسجل كتب التاريخ أخبار المراسلات ومحاولات التهدئة قبل اشتعال المعركة .

لكن تحديد اللحظة التي بدأ فيها القتال، واليد التي أطلقت الشرارة الأولى، تحيط به روايات متعددة، وفي كثير منها ضعف واضطراب. ومن الخطأ أن نصنع يقينًا تاريخيًّا من أخبار لا تمنحه. الذي يثبت وراء اختلاف التفاصيل أن القتال وقع، وأنه حين بدأ أفلت سريعًا من المقاصد المعلنة.

كان كل طرف يظن أن الآخر خانه أو بدأه، وتحرك الخوف أسرع من الرسائل، ثم لم تعد النيات التي جاء بها الكبار قادرةً على إيقاف السيوف التي رفعتها الجموع.

وهذا هو وجه الفتنة: لا يكون الحق فيها معدومًا بالضرورة، لكن الرؤية تضيق، والأخبار تختلط، والثقة تنهار، فيصبح كل تحرك من الطرف الآخر دليل عدوان، وكل استعداد للدفاع استعدادًا للهجوم في عين خصمه.

تبدأ الحرب أحيانًا لأن الفريقين يخاف كل منهما أن يبدأها الآخر.

الْجَمَلُ الَّذِي صَارَ مَرْكَزَ الْمَعْرَكَةِ

كانت عائشة في هودجها فوق الجمل، وحين اشتد القتال صار الجمل مركزًا تلتف حوله القوات التي خرجت معها. لم تكن تضرب بسيف، لكن وجودها كان الراية المعنوية للمعسكر؛ ما دام الجمل قائمًا ظن المدافعون أن الموقف قائم، فتساقط الرجال من حوله وهم يريدون حماية أم المؤمنين.

ومن هنا سميت الوقعة «وقعة الجمل».

إن المشهد يختصر خطورة الرمز في الحروب. لم يكن الجمل حيوانًا في ساحة القتال فحسب؛ أصبح معنىً تلتف حوله النفوس. كل رجل يقترب منه يشعر أنه يدافع عن زوج رسول الله ﷺ، وكل رجل في الجهة الأخرى يرى أن بقاء المركز يعني استمرار القتال.

وأصابت السهام الهودج حتى وُصف من كثرتها كأنه القنفذ. كانت عائشة وسط صوت السيوف وصهيل الخيل وصراخ الرجال، ترى الدم الذي لم تخرج تريده يسيل حولها. لم يعد السؤال عن القصاص لعثمان وحده؛ صار السؤال كيف يوقف هذا الموت الذي يتكاثر باسم الموقفين.

وأدرك علي رضي الله عنه أن المعركة لن تنتهي ما دام الجمل قائمًا؛ فأمر بعقره، فلما سقط تفرق من حوله وخمد مركز القتال. ثم أمر ألا يُتبع مدبر، ولا يُجهز على جريح، ولا تُقتحم الدور، وأمر بحمل هودج عائشة وإبعاده عن القتلى. تورد المصادر التاريخية خبر سقوط الجمل وأوامر علي بحماية المنهزمين وإخراج الهودج من ساحة القتال .

لم يعاملها علي أسيرةً، ولم يسمح أن تتحول هزيمة المعسكر إلى انتقام من أم المؤمنين. كان يستطيع، لو كان النزاع نزاع أحقاد شخصية، أن يستثمر انتصاره في إذلال خصومه؛ لكنه حفظ لها حرمتها، وردها إلى مقامها، وعرف أن الخطأ في الاجتهاد لا يلغي أمومتها للمؤمنين.

وكانت هي تعرف من فضله ما لم تمحه مرارة الهزيمة.

هنا ظهر المعدن الأخلاقي الذي بقي تحت ركام الفتنة: اختلفوا حتى وقع القتال، لكن الإيمان لم يغادر القلوب، والحقوق لم تسقط كلها، والمنتصر لم يحول خصمه إلى غنيمة. بقي شيء من نور الصحبة يقاوم ظلام السيوف.

طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ: حِينَ خَسِرَتِ الْأُمَّةُ رِجَالَهَا

وقُتل طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، أحد السابقين ومن العشرة المبشرين بالجنة. وأما الزبير بن العوام رضي الله عنه، حواري رسول الله ﷺ وابن عمته، فقد ترك القتال بعد أن راجع موقفه، ثم قُتل غدرًا وهو منصرف.

لم يكن هؤلاء رجالًا مجهولين سقطوا في نزاع على أطراف التاريخ؛ كانوا من أعمدة الجيل الأول. عرفوا بدرًا وأحدًا والخندق، وحملوا الإسلام حين كان حمله خطرًا، ثم وجدوا أنفسهم في نهاية الطريق داخل صراع بين مسلمين.

وهنا تظهر المأساة بأوضح صورها: الذين نجوا من سيوف المشركين سقط بعضهم في فتنة المسلمين.

لا يكفي أن نقول إنهم مجتهدون فنطوي صفحة الدم بعبارة فقهية؛ فالاجتهاد يحدد الحكم الأخلاقي على الأشخاص، لكنه لا يلغي حجم الخسارة. كانت الأمة قد خسرت عثمان، ثم خسرت في الجمل رجالًا من خيارها، وانفتحت جراح ستستمر آثارها قرونًا في الفكر والسياسة والمذاهب.

وحين رأى علي طلحة مقتولًا تألم، وحين جاءه قاتل الزبير يبشره بقتله لم يستقبل الخبر استقبال المنتصر الذي سقط خصمه. لم تكن المعركة في وعي الكبار فتحًا، كانت مصيبةً انتصر فيها فريق عسكريًّا وخسرت الأمة من روحها كثيرًا.

أما عائشة، فقد رأت أسماءً تعرفها تسقط حول هودجها، وعرفت بعد أن هدأ الغبار أن الإصلاح الذي خرجت ترجوه انتهى إلى نقيضه. هنا لا تعود النية الصادقة قادرةً على رد القتلى، ولا تستطيع البلاغة أن تجمع الدم في عروقه.

كانت تلك لحظة اصطدام المقصد بالمآل.

عَلِيٌّ وَعَائِشَةُ: خِلَافٌ لَمْ يُبْطِلِ الْحُرْمَةَ

أكرم علي رضي الله عنه عائشة بعد انتهاء القتال، وهيأ لها العودة إلى المدينة، وحفظ لها مقامها. لم يقل للناس إن خطأها أسقط أمومتها، ولم يجعل نصره دليلًا على طهارة كل من في جيشه أو فساد كل من وقف في الجهة الأخرى.

فهو يعلم أن عائشة زوج رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة، وأن لها من الفضل والعلم ما لا يبطله موقف. وهي تعلم أنه ابن عم رسول الله ﷺ، ومن السابقين وأهل البيت، وخليفة المسلمين، وصاحب فضل لا تمحوه الخصومة.

وهذا لا يعني أن كل شيء عاد فوراً كما كان، أو أن الجراح النفسية لم تبق؛ فالدم أثقل من أن تمحوه المجاملة. لكنه يعني أن الاختلاف، حتى حين بلغ أقصى صوره المأساوية، لم يتحول عند الكبار إلى إذن بإهدار الحرمات.

كان علي أقرب إلى الحق، لكنه لم يحتج إلى سب عائشة ليؤكد حقه. وكانت عائشة مخطئةً في خروجها، لكن خطأها لم يحولها إلى عدوة للدين أو لأهل البيت. هذه اللغة المتطرفة جاءت لاحقًا حين استخدمت الفرق التاريخ وقودًا لهوياتها.

أما القرآن فقد قال عن الطائفتين المقتتلتين: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا**﴾؛ أبقى لهما اسم الإيمان مع وقوع الاقتتال، ثم أمر بالإصلاح والعدل. لم يقل إن الدم هيّن، ولم يجعل القتال كفرًا يخرجهم من الملة.

وهذا هو الميزان الذي ينبغي أن نقرأ به الجمل: مؤمنون وقعت بينهم فتنة، ومجتهدون تفاوتوا في القرب من الصواب، وخطأ ترتبت عليه دماء عظيمة، وفضل سابق لا يجوز أن تأكله لحظة واحدة مهما كانت فادحة.

شَجَاعَةُ الْمَوْقِفِ وَشَجَاعَةُ نَقْدِهِ

يستطيع الكاتب أن يقدم خروج عائشة بوصفه بطولةً خالصة: امرأة كسرت الصمت، وتحملت مسؤولية الأمة، ولم تخش الميدان. ويستطيع خصمها أن يقدمه بوصفه خطيئةً لا يرى وراءها علمًا ولا فضلًا. كلاهما يقتل الحقيقة؛ الأول يلغي المآل، والثاني يلغي العمر والمقصد.

كانت شجاعةً منها أن تتحمل المسؤولية كما رأتها، لكن الشجاعة لا تجعل القرار صحيحًا تلقائيًّا. وكان مقصدها الإصلاح، لكن المقصد لا يمنع الفعل من أن يفتح باب فساد أكبر. وكانت أمًّا للمؤمنين، لكن الأم قد تخطئ في اختيار الطريق الذي تريد أن تحمي به أبناءها.

إن أعظم تكريم لها ليس أن نخفي خطأها، بل أن نثق بأن فضلها أوسع من أن يهدمه الاعتراف به. الشخصيات الصغيرة تحتاج إلى تجميل دائم كي تبقى؛ أما عائشة فتبقى عظيمةً وهي بشر تجتهد وتراجع وتندم.

بل إن خطأها السياسي يكشف وجهًا آخر من عظمة التجربة الإسلامية: لم تُصنع رموزها من معادن خيالية لا تخطئ؛ كانوا بشرًا عظامًا، ارتفعوا بالإيمان والعلم، ثم ظلت فيهم حدود الإنسان. ولهذا يمكن لسيرتهم أن تربينا؛ لأننا لا نتعلم من تماثيل، بل من أرواح واجهت الاختيار ودفعت ثمنه.

مَاذَا تُعَلِّمُنَا وَقْعَةُ الْجَمَلِ؟

تعلمنا أولًا أن العدالة تحتاج إلى قوة دولة، وأن استعجال الحق في زمن انهيار السلطة قد يضاعف الظلم الذي خرج الإنسان لإزالته.

وتعلمنا أن المقاصد النبيلة لا تمنح الأدوات المسلحة براءتها؛ فالسلاح يدخل في القضية بإرادته الخاصة، ويستدعي العصبية والخوف والرغبة في الغلبة.

وتعلمنا أن الرمز الديني حين يدخل الصراع لا يبقى فردًا؛ يتحول جسده وموقفه إلى راية، وقد يموت الناس دفاعًا عن صورته وإن لم يطلب منهم الموت.

وتعلمنا أن الخصومة السياسية لا ينبغي أن تمحو الفضائل العلمية والأخلاقية، فعلي بقي عليًّا في فضل عائشة، وعائشة بقيت أم المؤمنين في معسكر علي.

وتعلمنا أن الإقرار بأن أحد الطرفين أقرب إلى الحق لا يوجب شيطنة الطرف الآخر. فالعدل يستطيع أن يرجح، ويستطيع في الوقت نفسه أن يحفظ الحرمة.

وتعلمنا أن أعظم الناس قد يخطئون حين يقدّرون المآلات، وأن منزلة الإنسان الدينية لا تغنيه عن فقه الواقع، كما أن صدق القلب لا يكفي وحده لضبط حركة الجماعات.

لكن الدرس الأعمق كان ينتظر عائشة نفسها بعد عودتها إلى المدينة.

لقد خرجت تريد أن تستدرك على واقع الأمة، ثم عادت وفي قلبها استدراك على قرارها. خرجت تحمل ثقة صاحبة الحجة، ثم عادت تحمل تواضع من رأى أن التاريخ أشد تعقيدًا من أن ينقاد لبلاغة المقصد. لم تمحُ تجربتها، ولم تحول الهزيمة إلى مكابرة، ولم تقض بقية حياتها تبرر كل خطوة اتخذتها.

كان أمامها لون جديد من الشجاعة، ربما يكون أصعب من شجاعة الخروج: شجاعة أن تنظر إلى الوراء، وترى الدم الذي لم ترده، ثم تقول لقلبها إن النية وحدها لم تكن كافية.

فالموقف يحتاج إلى جرأة، أما المراجعة فتحتاج إلى تجرد.

وفي عائشة اجتمعت الشجاعتان: شجاعة تحركت بها حين ظنت أن الحركة واجب، وشجاعة أوجعتها بعد ذلك حين اكتشفت أن السلامة كانت في غير الطريق الذي سلكت.

ومن هنا تبدأ مرحلتها الأعمق: لا عائشة الخارجة إلى الجمل، بل عائشة العائدة منه، المرأة التي حملت مرارة المآل، وعرفت أن أشد الدروس رسوخًا هي التي يدفع الإنسان ثمنها من قلبه.

الْفَصْلُ التَّاسِعُ

شَجَاعَةُ الْمُرَاجَعَةِ: عَائِشَةُ بَعْدَ الْجَمَلِ

ثمة شجاعة يراها الناس، شجاعة الخروج إلى الميدان، ورفع الصوت في وجوه الرجال، وتحمل الطريق والخطر والخصومة. وثمة شجاعة لا يكاد يراها أحد، أن يعود الإنسان من ميدانه إلى قلبه، وأن يجلس وحده أمام القرار الذي اتخذه، وينزع عنه كل ما كان يحيط به من حماسة وتبرير، ثم يسأل نفسه: هل كان الطريق الذي سلكته هو الطريق الأقرب إلى الله؟

الأولى تحتاج إلى قوة في مواجهة الخارج، أما الثانية فتحتاج إلى صدق في مواجهة النفس.

وقد امتلكت عائشة رضي الله عنها الشجاعتين. خرجت حين رأت أن الخروج إصلاح، ثم راجعت خروجها حين رأت ما انتهى إليه. لم تجعل نقاء مقصدها حجابًا يمنعها من رؤية الدم، ولم تقل إن حسن النية يكفي لإعفاء القرار من سؤال المآل، ولم تقض بقية عمرها تبني الأعذار حول لحظة الجمل حتى لا يقترب منها الندم.

عادت إلى المدينة تحمل ذاكرةً لا تشبه الذاكرة التي خرجت بها. كانت قبل المسير تحفظ دمعة أبي بكر يوم الهجرة، وابتسامة النبي ﷺ، ولياليه في الصلاة، وأسئلة تلاميذها، وحادثة الإفك، ثم أضيف إلى ذاكرتها صوت المعركة،

وسقوط الرجال، والسهام التي استقرت في هودجها، وأسماء من خرجوا يطلبون الإصلاح ثم لم يعودوا.

لا يستطيع العقل الصادق أن يرى ذلك كله ثم يبقى كما كان.

الْعَوْدَةُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ هَزِيمَةً فَقَطْ

عادت عائشة من البصرة إلى المدينة مكرمةً، محفوظة الحرمة، لكن الكرامة الظاهرة لا تزيل مرارة الداخل. فقد انتهى المشروع الذي خرجت له إلى غير مقصده، وصار عليها أن تعيش مع حقيقة أن رجالًا قُتلوا حول جملها وهم يظنون أن الدفاع عن موقعها دفاع عن الحق.

لم تكن هي التي أمرت بكل سيف ضُرب، ولم تملك لحظة اشتعال القتال، ولم تخرج أصلًا تريد محاربة علي رضي الله عنه؛ لكن صاحب المكانة لا يملك أن يقيس مسؤوليته بأوامره المباشرة وحدها. فوجوده قد يحرك ما لم يأمر به، واسمه قد يمنح أفعال الآخرين شرعيةً لم يقصد منحها.

وكانت عائشة من الذكاء بحيث لا تختبئ وراء العبارة السهلة: لم أرد ذلك. فالنية تفسر الفعل وتحدد منزلته الأخلاقية، لكنها لا تمحو أثره. وما لم يقصده الإنسان قد يصبح جزءًا من مسؤوليته إذا كان فعله قد فتح الطريق إليه. وهذا لا يعني أن يحمل نفسه كل ذنب وقع، بل أن يتعلم من المسافة بين المقصد والنتيجة.

لقد خرجت لتجمع، فوقعت الفرقة؛ وخرجت لتحفظ دمًا، فسالت دماء؛ وخرجت لتعيد للعدل هيبته، فانتهى الأمر إلى معركة بين المؤمنين. ليس أشد على الضمير الصادق من أن يرى القيمة التي تحرك من أجلها وقد خرجت من التجربة أكثر جراحًا.

كان يمكن لها أن تقول إن الآخرين أفسدوا مشروعها، وإن مجهولين أشعلوا القتال، وإنها لم تقصد الحرب، ثم تغلق باب المراجعة. وكانت تلك العبارات تحمل جوانب من الحقيقة، لكنها لا تحمل الحقيقة كلها. فالسؤال الأعمق ليس: من بدأ السيف؟ بل: هل كان دخول الميدان الذي يمكن أن يُشهر فيه السيف هو الاختيار الأحكم؟

وعند هذا السؤال بدأ ندمها.

«وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَسِرْ مَسِيرِي»

رُوي عن عائشة في المصنفات المبكرة أنها كانت تتمنى لو لم تسر مسيرها الذي سارت، وتستعظم ذلك حتى تقابله بفقد عزيزين كثيرين. ليست هذه العبارة إعلانًا بأنها خرجت بفساد قصد، ولا اعترافًا بسقوط منزلتها؛ إنها حكم على القرار بعد انكشاف مآله.

كانت تقول، في معنى ندمها: لو أنني بقيت ولم أخرج.

وهذه الجملة، على قصرها، أرفع أخلاقيًّا من كتب طويلة في التبرير. فالإنسان يستطيع أن يصنع لكل خطوة تفسيرًا يحمي صورته، لكنه لا يستطيع أن يتعلم ما دام همه الأكبر أن يثبت أنه لم يخطئ.

لقد رأت عائشة أن عدم المسير كان خيرًا من المسير. وهذا لا يجعل كل ما قالته في طلب العدالة باطلًا؛ فالقصاص لعثمان كان حقًّا، ودمه لم يكن أمرًا هيّنًا. لكن الحق قد يُطلب بأداة تضر به، وقد يكون السكوت المؤقت عن تنفيذ حكم حتى تستقر الدولة أحفظ للحكم من حركة عاجلة تقسم الأمة.

كانت مراجعتها متجهةً إلى الوسيلة والتوقيت والمآل، لا إلى قيمة العدل نفسها.

وهنا يظهر الفرق بين التراجع عن المبدأ والتراجع عن الاجتهاد. لم تقل إن قتل عثمان صار مقبولًا، أو إن المطالبة بدمه كانت في أصلها ظلمًا؛ أدركت أن الطريق الذي اتخذته لتحقيق ذلك الحق لم يكن هو الأصلح.

وهذه من أنضج صور المراجعة: أن يحفظ الإنسان قيمة موقفه، ثم يعترف بأن تنزيلها كان خاطئًا.

آيةٌ تعود بعد الحدث بمعنى أثقل

واشتهر في كتب التفسير والسير أن عائشة كانت إذا قرأت قول الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ بكت حتى تبل خمارها، تتذكر مسيرها يوم الجمل. والخبر مذكور في كتب التفسير والتراجم، وليس في صحيح البخاري كما تنسبه بعض الكتابات الشائعة بلا تثبت. وقد نقل أهل العلم أصل اشتهار بكائها عند هذه الآية وربطوه بندمها على المسير .

وسواء ثبتت كل تفاصيل صورة الخمار المبتل أم لم تثبت بأعلى درجات الأسانيد، فإن ندمها على المسير تشهد له أخبار متعددة، وتؤيده عودتها إلى المدينة وامتناعها عن تكرار الدخول في القتال.

كانت قد قرأت الآية قبل الجمل، لكنها بعد الجمل لم تعد تقرؤها بالقلب نفسه. فالآية الواحدة قد تعبر عمر الإنسان مرات، وفي كل مرة تفتح فيه موضعًا جديدًا. قبل التجربة تُقرأ بوصفها أمرًا، وبعد التجربة تُقرأ بوصفها مرآة.

وليس المقصود أن كل خروج للمرأة من بيتها منهي عنه؛ فقد خرجت أمهات المؤمنين للحج، وخرجن للحاجة، وعلمت عائشة الرجال والنساء، وتكلمت في الشأن العام. إنما بقي في قلبها أن خروجها الخاص إلى ذلك المسير لم يكن مما تتمنى لقاء الله به.

كانت الآية تعيدها إلى اللحظة التي كان يمكن أن تختار فيها البقاء. وكلما قرأتها ربما رأت الطريق إلى البصرة، وسمعت نباح الحوأب، ورأت الجمل قائمًا والرجال يسقطون حوله. لم تكن تبكي من لفظ الآية وحده، بل من التاريخ الذي صار اللفظ يوقظه داخلها.

إن القرآن لا يقرأنا جميعًا بالطريقة نفسها؛ لكل إنسان آية تعرف موضعه الخفي.

وكانت ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ تعرف في قلب عائشة طريقًا إلى جرح لا يراه الناس.

لَمْ تَجْعَلِ النَّدَمَ سَيْفًا عَلَى ذَاتِهَا

على أن عائشة لم تتحول بعد الجمل إلى إنسان منكسر يعتزل العلم والحياة، ولم تقل إن الخطأ السياسي أسقط أهليتها للتعليم. عادت إلى حجرتها، وعاد السائلون، واستمرت في الرواية والفقه والاستدراك.

وهذا جانب عظيم من توازنها: راجعت الفعل دون أن تهدم ذاتها.

بعض الناس إذا اكتشف خطأه هرب إلى التبرير كي يحمي صورته؛ وبعضهم يذهب إلى الطرف الآخر، فيحول الندم إلى كراهية للنفس، ويجعل خطأ واحدًا حكمًا نهائيًّا على عمر كامل. كلاهما يمنع الإصلاح. فالمبرر لا يتعلم، والمحطم لا يقدر على العمل.

أما التوبة والمراجعة في ميزان الإيمان فلا تقول للإنسان إنك صرت عدمًا؛ تقول له إن باب الخير ما يزال مفتوحًا، وإن واجبك بعد الخطأ أن تعود إلى الموضع الذي تستطيع فيه أن تنفع. وقد عادت عائشة إلى أعظم ميادينها: العلم والعبادة وتربية الأجيال.

لم تستقل من أمومتها للمؤمنين لأنها أخطأت في اجتهاد، ولم تنقطع عن حمل سنة رسول الله ﷺ؛ فالأمانة التي عندها لا يجوز أن تدفنها تحت ثقل الندم. كان عليها أن تظل تعلم، لأن الأمة لا تستغني عن علمها، وكان عليها أن تظل تذكر ما حدث، لأن العالم الذي لا يتعلم من جرحه قد يكرر الجرح في تلاميذه.

وهكذا لم يكن ندمها توقفًا عن الحياة، بل إعادةً لترتيبها. تركت ميدان السلاح، وبقي لها ميدان الكلمة؛ غير أن الكلمة بعد الجمل صارت أكثر معرفةً بثقلها.

لَمْ تَجْعَلْ عَلِيًّا ذَرِيعَةً لِتَبْرِيرِ نَفْسِهَا

كان من السهل على عائشة، لو غلبتها الخصومة، أن تجعل عليًّا مسؤولًا عن كل ما وقع، وأن تستمر بعد عودتها في بناء جبهة ضده، وأن تحول حزنها على القتلى إلى مشروع ثأر جديد. لكنها لم تفعل.

عادت إلى المدينة، ولم تخرج بعد ذلك في حركة مسلحة، ولم تجعل حجرتها مركزًا لإعادة معركة الجمل. وبقي لعلي رضي الله عنه فضله ومكانته العلمية، كما بقي لها عنده مقام أم المؤمنين. لقد انتهى القتال، ولم تُرِد أن تجعل الذاكرة وقودًا لقتال آخر.

وهنا تظهر أخلاق المراجعة: الذي يريد تبرئة ذاته كليًّا يحتاج دائمًا إلى مذنب كامل يضع عليه الأوزار. أما الذي يعترف بنصيبه من الخطأ فلا يحتاج إلى شيطنة خصمه.

لم تكن علاقتها بعلي خاليةً من اختلافات بشرية قبل الجمل، ولم تمح المعركة كل ألم بعدها؛ لكن الإسلام في قلبيهما كان أكبر من أن يسمح بتحويل الخلاف إلى حرب أبدية على الفضائل. وقد أكرمها علي بعد المعركة وردها إلى المدينة، وعرفت هي أن اجتهاده كان أحفظ للجماعة.

إن المصالحة الحقيقية لا تعني أن يتظاهر الطرفان بأن شيئًا لم يقع، بل أن يوقفا الخطأ عند حدوده، فلا يسمحا له أن يلتهم ما قبله وما بعده.

وقد أوقفت عائشة الجمل عند الجمل، ولم تجعل بقية عمرها امتدادًا له.

الْمُرَاجَعَةُ لَيْسَتِ اعْتِرَافًا لِلْخُصُومِ بِكُلِّ شَيْءٍ

استغل بعض أهل الجدل ندم عائشة ليحولوه إلى إقرار بكل ما أرادوا نسبته إليها، كما استغل بعض محبيها مكانتها لإنكار أصل الندم. والفريقان يخافان الحقيقة من جهتين مختلفتين.

الخصم يريد أن يقول: ما دامت ندمت فقد اعترفت بفسادها وخروجها عن الدين. والمحب المتعصب يخشى أن يكون الاعتراف بخطئها تسليمًا للخصم. أما الإنصاف فيقول: ندمت لأنها مؤمنة ذات ضمير، وخطؤها لا يخرجها من فضلها ولا من أمومتها ولا من عدالتها في الرواية.

الندم ليس وثيقةً مفتوحةً يكتب فيها الخصوم ما يشتهون؛ إنه متعلق بفعل محدد رأت بعد التجربة أن تركه كان أولى. ولا يجوز أن يُحمل فوق ما يحتمل، كما لا يجوز أن يُمحى.

لقد بقيت عائشة تروي وتفتي، وبقي الصحابة والتابعون يأخذون عنها، ولم ير المسلمون أن الجمل أسقط علمها. وهذا إجماع عملي على أن الخطأ السياسي لا يبطل الصدق العلمي، كما أن الصدق العلمي لا يحول الاجتهاد السياسي إلى عصمة.

يستطيع الإنسان أن يكون حجةً في باب، مخطئًا في باب آخر. والعقل الذي لا يحتمل هذا التركيب إما أن يصنع ملائكةً من البشر أو شياطين؛ ولا يستطيع في الحالتين أن يقرأ التاريخ.

«إِنِّي أَحْدَثْتُ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ حَدَثًا»

كانت عائشة تحدث نفسها أن تدفن في حجرتها مع رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم أوصت أن تدفن مع أمهات المؤمنين في البقيع. وجاء عنها في رواية صحح الحاكم إسنادها على شرط الشيخين أنها قالت: «إني أحدثت بعد رسول الله ﷺ حدثًا، ادفنوني مع أزواجه». وهذا نص الرواية وحكم الحاكم عليها .

وثبت في صحيح البخاري أنها قالت لعبد الله بن الزبير: «ادفني مع صواحبي، ولا تدفني مع النبي ﷺ في البيت؛ فإني أكره أن أزكى»، وفي رواية: «لا أزكى به أبدًا». واللفظ الثابت في صحيح البخاري هنا .

تجتمع الروايتان في معنى التواضع والخوف من خصوصية قد يقرأها الناس تزكيةً لها. لم ترد أن يجعل موضع قبرها الناس يرفعونها فوق مقامها، ولم تتكئ على كونها أحب نساء النبي ﷺ إليه لتطلب تميزًا في الدفن.

وأما قولها: «أحدثت بعد رسول الله حدثًا»، فليس إعلانًا بهدم تاريخها، ولا يجوز أن يُقرأ بالمصطلحات التي يستخدمها خصومها للطعن في دينها. الحدث في لفظها هو الأمر العظيم الذي وقع بعده، وفي مقدمته مسيرها إلى الجمل؛ وقد

رأته هي أمرًا يجعل البقيع وصحبة أمهات المؤمنين أحب إليها من خصوصية القرب في الدفن.

كانت تخشى التزكية، لا لأنها لا فضل لها، بل لأن أصحاب الفضل الصادقين أشد الناس خوفًا من أن يحول الناس فضلهم إلى ضمانةٍ تغنيهم عن الحساب.

لقد نزل القرآن ببراءتها، وحملت علمًا عظيمًا، وأحبها رسول الله ﷺ، ومع ذلك لم تقل عند الموت: أنا صاحبة هذه المناقب. قالت: ادفنوني مع صواحبي.

أعادت نفسها في النهاية إلى الجماعة، ولم تطلب أن يكون قبرها عنوانًا للاستثناء.

«دَعْنِي مِنْ تَزْكِيَتِكَ»

ولما حضرتها الوفاة، دخل عليها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يثني عليها ويذكر مناقبها: كانت من أحب نساء رسول الله ﷺ إليه، ونزلت بسببها رخصة التيمم، وأنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات، وصار شأنها يتلى في مساجد المسلمين.

لم تنكر شيئًا من هذه الفضائل، فهي حق، لكنها قالت له: دعني من تزكيتك، وودت لو كانت نسيًا منسيًّا. وقد روي هذا الخبر بإسناد حسن.

وتفاصيل زيارة ابن عباس وكلامها محفوظة في الروايات .

لم تكن كلمتها يأسًا من رحمة الله؛ كانت خوف المؤمن الذي يرى أعماله من جهة نقصه، بينما يراها الناس من جهة فضلها. ابن عباس ينظر إلى البراءة والعلم والحب النبوي، وهي تنظر إلى موقف ستسأل عنه، وكلمات قالتها، وعمر لا تعرف كيف يقبل الله منه.

الناس يعدون المناقب، والعارف بالله يعد مواضع التقصير.

لم تكن تريد من ابن عباس أن يقنعها بمكانتها؛ كانت في ساعة تستعد فيها لملاقاة الله، وحين يقترب الحساب تصبح التزكية البشرية خفيفة الوزن. ماذا تفعل كلمة مخلوق أمام علم الخالق؟ وماذا ينفع المديح إذا كان العبد لا يعلم خاتمة صحيفته؟

وفي قولها «وددت أني كنت نسيًا منسيًّا» لا ينبغي أن نربط كل المعنى بوقعة الجمل وحدها؛ فقد كان ذلك من شدة خشيتها وتواضعها ونفورها من الثناء عند الموت. لكن الجمل كان بلا شك أحد أثقل الأحداث في ذاكرتها، ومن الطبيعي أن يدخل في خوفها من الحساب.

لم تكن تتمنى أن تُنسى لأن حياتها بلا قيمة؛ بل لأنها تعرف أن القيمة نفسها مسؤولية.

مِنْ فِقْهِ الِاسْتِدْرَاكِ إِلَى اسْتِدْرَاكِ النَّفْسِ

قضت عائشة عمرها تستدرك على الرواة: هذا اللفظ لم يُحفظ، وهذا الخبر له سياق، وهذا الفهم يخالف القرآن، وهذا الصحابي وَهِم في الزمن أو الحال.

لكن أعظم استدراكات الإنسان ليس ما يقوله عن الآخرين، بل ما يقدر على قوله عن نفسه.

كان يمكن لمنهجها النقدي أن يبقى متجهًا إلى الخارج، فتكون شديدة البصر بأخطاء الناس عمياء عن خطئها. غير أن القرآن الذي علمها أن ترد المرويات إلى ميزانه علمها كذلك أن ترد قراراتها إليه.

لقد طبقت على نفسها القاعدة التي طبقتها على الكبار: الفضل لا يمنع المراجعة.

كما أن خطأ ابن عمر في تعيين زمن العمرة لم يمح فضله، وكما أن وهم راوٍ في فهم حديث لا يسقط عدالته، فإن خطأ عائشة في المسير لا يمحو علمها وسبقها. لكنها لم تقل إن فضلها يمنع وصف المسير بأنه خطأ.

هكذا اكتمل منهجها أخلاقيًّا. النقد الذي لا يعود إلى صاحبه يتحول إلى سلطة، أما النقد الذي يبدأ من النفس فيصبح عبادة.

لم تستدرك على التاريخ وحده، استدركت على ذاتها داخل التاريخ.

الْخَطَأُ الَّذِي يُنْضِجُ الْحِكْمَةَ

ليست كل الأخطاء سواء، منها ما يصنعه الهوى ويصر صاحبه عليه، ومنها ما يقع فيه الإنسان وهو يطلب الخير ثم يتبين له خلاف ما رأى. ولا تتحدد قيمة الإنسان بلحظة الخطأ وحدها، بل بما يفعله بعد أن ينكشف له.

قد يخرج من الخطأ أكثر قسوةً، لأنه يبني حول نفسه حصون التبرير، وقد يخرج أكثر حكمةً لأنه أدرك حدود نظره. وعائشة خرجت من الجمل وهي تعرف أن وضوح القيمة لا يعني وضوح الطريق، وأن حرارة الضمير لا تغني عن برودة النظر في المآلات، وأن المكانة الأخلاقية قد تجعل حركة صاحبها أخطر مما يتصور.

لقد تعلمت أن الأمة لا تصلح دائمًا بحضور الرموز؛ فقد يصبح حضورهم سببًا لاحتشاد الناس وانقسامهم. وتعلمت أن القوى التي تدخل ميدانًا لا تبقى تحت يد من دعاها، وأن السلاح إذا ظهر غيّر لغة الحوار. وتعلمت أن المصلح لا يكفيه أن يسأل: ماذا أريد؟ بل ينبغي أن يسأل: ما الذي يمكن أن يصنعه فعلي إذا خرج من يدي؟

وهذه ليست دروسًا سياسيةً مجردة؛ إنها دروس في طبيعة الإنسان. فكثير من الشرور الكبرى لا يبدأها أشرار يريدون الشر كله، بل أخيار يريدون بعض الخير دون أن يحسنوا تقدير الطريق.

لم يجعلها هذا الإدراك شكاكةً في كل عمل، لكنه جعلها أعرف بضعف القدرة البشرية أمام تشابك الواقع.

الْعَظَمَةُ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى الْعِصْمَةِ

ليس عظيمًا من لم يخطئ قط؛ فهذا وصف لا يكون لبشر بعد الأنبياء فيما عصمهم الله فيه. العظيم هو الذي لا يجعل فضله حصنًا ضد الحقيقة، ولا يحول تاريخه المضيء إلى حجة تبرر عثرته.

كانت عائشة تستطيع أن تقول: أنا المبرأة من فوق سبع سماوات، وأنا حبيبة رسول الله ﷺ، وأنا أعلم نساء الأمة؛ فمن يراجع قراري؟ لكنها لم تفعل. كانت تعرف أن براءتها من الإفك لا تعني براءتها من إمكان الخطأ، وأن علمها لا يحول كل تقدير سياسي إلى علم، وأن حب النبي ﷺ لها لا يعفيها من الوقوف بين يدي الله.

وهذا هو التنزيه الصحيح للشخصيات العظيمة: لا أن نرفعها فوق حدود البشر، بل أن نرى كيف ارتفعت داخل تلك الحدود بالإيمان والصدق.

إن اختراع عائشة بلا خطأ يسلبها واحدةً من أجمل فضائلها: قدرتها على الندم. ويحرم الأمة من درس لا يقل أهميةً عن علمها وفقهها: أن الرجوع إلى الحق لا يُسقط صاحبه، وأن الاعتراف بخطأ الطريق لا يعني خيانة المقصد.

لقد بقيت أم المؤمنين بعد الجمل، وبقيت العالمة، وبقيت المبرأة، وبقيت العابدة. لم ينقصها الندم؛ طهر صورتها من التقديس الكاذب، وكشف أن قلبها كان أكبر من كبرياء السياسة.

حِينَ عَادَتِ الْجُرْحَةُ مِحْرَابًا

عادت عائشة من صخب المعركة إلى حجرتها، ومن أصوات الجيوش إلى صوت القرآن، ومن محاولة إصلاح الأمة في الميدان إلى إصلاح عقولها بالعلم. لم يكن ذلك انسحابًا من المسؤولية؛ كان رجوعًا إلى الميدان الذي كانت فيه أقدر على البناء وأقل تعرضًا لأن تتحول نيتها إلى نقيضها.

ومن وراء الستر استمرت في تعليم الرجال والنساء، لكن الليل كان يعرف وجهًا آخر لها، وجه المرأة التي تقف وحدها بين يدي الله، لا تحيط بها مكانة أم المؤمنين، ولا شهادات التلاميذ، ولا مناقب يعددها ابن عباس.

في الصلاة تسقط ألقاب الناس، ويبقى العبد.

وربما كان الجمل حاضرًا في بعض دموعها، كما كان الإفك حاضرًا، وكما كان فراق النبي ﷺ حاضرًا. فالعابد لا يدخل محرابه بلا ذاكرة؛ يحمل معه أخطاءه وآلامه ونِعَم الله عليه، ثم يضعها كلها في السجود.

هناك نفهم أن تقواها لم تكن فصلًا منفصلًا عن فقهها وسياساتها وتجاربها؛ كانت المكان الذي تعود إليه هذه الأشياء كلها لتُوزن. العلم يعود إلى الخشية، والموقف يعود إلى الحساب، والندم يعود إلى الرجاء.

لقد عرفت عائشة ضجيج التاريخ، لكنها لم تجد خلاص قلبها فيه.

وجدته في الحجرة حين ينام الناس، ويخف صوت المدينة، وتفتح آية واحدة جرحًا كاملًا، فتبكي بين يدي الله؛ لا بوصفها شخصيةً يكتب المؤرخون عنها، بل أَمَةً ترجو أن يغفر لها ربها.

ومن هنا يبدأ وجهها الأشد خفاءً والأقرب إلى حقيقتها: عائشة التي عرفها الناس عالمةً وخطيبةً وصاحبة موقف، وعرفها الليل قلبًا خاشعًا لا يريد من الدنيا إلا أن يعبر منها إلى الله سالمًا.

الْفَصْلُ الْعَاشِرُ

وَرَاءَ سِتْرِ الْحُجْرَةِ: حِينَ كَانَ الْعِلْمُ يَعُودُ إِلَى السُّجُودِ

عرف الناس عائشة رضي الله عنها بصوتها: يسمعون جوابها، ويحفظون حديثها، وينقلون استدراكها، ويشهدون لفصاحتها. لكن الله عرف منها ما لا تسمعه المجالس؛ عرف صمتها إذا هدأت المدينة، وقيامها حين لا يقف عند بابها سائل، ودمعتها التي لم تكن حجةً في مناظرة، وإنما خوفًا من يوم لا تنفع فيه بلاغة ولا نسب ولا مكانة.

كانت الحجرة في النهار جامعةً، وفي خلواتها محرابًا. يجتمع عند بابها طلاب العلم، ثم ينصرفون حاملين أجوبتهم، وتبقى هي أمام السؤال الذي لا يستطيع أحد أن يجيب عنه نيابةً عنها: كيف ألقى الله؟

في ذلك السؤال كانت تتساقط ألقابها كلها. ليست زوج النبي ﷺ، ولا ابنة الصديق، ولا المبرأة من فوق سبع سماوات، ولا مرجع الصحابة والتابعين؛ إنها أَمَةٌ تقف بين يدي ربها، تحمل علمًا سيكون حجةً لها أو عليها، وعمرًا تعرف من مواطن نعمته ما يجعلها أشد حياءً من التقصير.

وهنا نفهم أن خشيتها لم تكن جانبًا زائدًا في شخصيتها يمكن أن يوضع بعد فصول العلم والسياسة؛ كانت المركز الذي تعود إليه هذه الأبعاد كلها. فالعلم عندها يعود إلى السؤال عن العمل، والفقه يعود إلى مراقبة الله، والموقف يعود إلى الحساب، والندم يعود إلى التوبة والرجاء.

لم تكن تسجد لأنها لا تعرف، كانت تسجد لأنها تعرف.

الْآيَةُ الَّتِي أَوْقَفَتِ الزَّمَنَ

كان القاسم بن محمد إذا خرج في الصباح بدأ ببيت عمته عائشة، يسلم عليها. جاءها يومًا فوجدها قائمةً تصلي، تقرأ قول الله تعالى:

﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾.

كانت تردد الآية، وتدعو، وتبكي.

وقف القاسم ينتظر أن تفرغ، فطال قيامها حتى ملَّ الوقوف، فذهب إلى السوق لبعض حاجته، ثم عاد، فوجدها ما تزال قائمةً كما هي، تصلي وتبكي وتردد الآية. وقد حفظت كتب الزهد والتراجم هذا المشهد من عبادتها.

ومن مصادره المبكرة ما أورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» .

لم تكن قد انتقلت إلى آية أخرى، فالمراد من التلاوة لم يكن أن تبلغ نهاية السورة، بل أن تبلغ الآية نهاية القلب. وحين وصل المعنى إليها لم تعد الكثرة مطلوبةً، صارت الآية الواحدة عالمًا كاملًا، تقف فيه طويلًا، وتدور حول كلماته كأن بينها وبين النجاة مسافةً لا يعبرها إلا الدعاء.

وتأتي الآية في سياق حديث أهل الجنة بعضهم مع بعض:

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۝ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

ربما رأت نفسها في كلمة ﴿مُشْفِقِينَ﴾، خائفةً وهي بين أهلها، لا يغريها القرب من بيت النبوة بالأمن من مكر الله، ولا تجعل مناقبها بينها وبين الحساب حجابًا. وربما توقفت عند ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، لأن أهل الجنة أنفسهم لم ينسبوا النجاة إلى أعمالهم، بل إلى منة الله. لقد عملوا وخافوا ودعوا، ثم حين وصلوا قالوا: منَّ الله علينا.

كانت عائشة تعرف من العمل ما تعرف، لكنها تعرف قبل ذلك أن العمل لا يستقل بإنقاذ صاحبه. لا علمها، ولا صلاتها، ولا صيامها، ولا صدقتها، ولا قربها من رسول الله ﷺ يمنحها على الله حقًّا؛ النجاة منة، والجنة رحمة، والعبد يطرق الباب ولا يملك أن يفتحه لنفسه.

ولذلك كانت تكرر: ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾، كأنها لا تقرأ حكاية قوم نجوا، بل تسأل الله أن يجعلها منهم.

لم تكن الآية خبرًا عن المستقبل؛ كانت دعاءً حاضرًا.

التَّكْرَارُ الَّذِي يَحْفِرُ الْمَعْنَى

قد يمر الإنسان على صفحات كثيرة من القرآن، ثم لا تتغير فيه صفحة واحدة؛ لأن اللسان سبق والقلب تأخر. وقد يقف عند آية واحدة حتى تعيد ترتيب حياته. لم يكن تكرار عائشة للآية عجزًا عن متابعة التلاوة، بل قدرةً على البقاء أمام الحقيقة بدل الهرب منها إلى حقيقة أخرى.

إن النفس أحيانًا تستخدم كثرة القراءة وسيلةً كي لا تتوقف طويلًا عند الآية التي تكشفها. تنتقل قبل أن يكتمل السؤال، وتطلب ثواب الحروف

دون أن تسمح للنور بالدخول إلى مواضعها المغلقة. أما عائشة فكانت تمنح الآية زمنها؛ ترددها حتى ينفذ معناها، وتبكي حتى يصبح الدعاء جزءًا من كيانها.

وقد رأت النبي ﷺ يقوم بآية يرددها في ليله، وعرفت أن القرآن لم ينزل ليمر على الشفاه مرورًا سريعًا، بل لينزل مرةً أخرى على القلوب. وكان قيامها استمرارًا لذلك التعليم؛ لا تحفظ للأمة عدد ركعاته وحده، بل تحفظ في ذاتها طريقة الوقوف بين يدي الله.

وليست العبرة في طول الوقوف الذي ملَّه القاسم ثم ذهب وعاد؛ العبرة في غياب الزمن عنها. كان السوق يفتح، والناس يذهبون إلى حوائجهم، والحياة تتحرك خارج الحجرة، أما هي فبقيت عند مصيرها.

ثمة لحظات لا ينبغي للإنسان أن يغادرها لمجرد أن الساعة تقدمت.

الْحَقِيقَةُ أَبْلَغُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ

وقد يضيف المحبون إلى مشاهد العبادة أوصافًا مؤثرةً لا تثبت، فيقال إن دموع عائشة ظلت تسيل حتى ابتلت قدماها، أو يضاف إلى الخبر ما لا تحمله الروايات. لكن حبها لا يحتاج إلى هذه الزيادات؛ فالمشهد الثابت أبلغ: رجل يذهب إلى السوق ويقضي حاجته ثم يعود، وهي ما تزال قائمةً عند الآية نفسها.

لم تُذكر قدماها، لكن ذُكر الزمن الذي عبر وهي لا تزال تبكي؛ ولم تحتج الرواية إلى رسم بحر من الدموع، لأن القلب يفهم من طول الوقوف ما لا تقوله المبالغة.

والأمانة هنا جزء من الوفاء لعائشة نفسها؛ فهي التي استدركت على الرواة، وردت الألفاظ إلى مواضعها، ورفضت أن يُنسب إلى النبي ﷺ ما لم يقل. فلا يليق أن نمدحها بخبر لم يثبت، أو نرى الحقيقة أقل جمالًا لأنها لا تحمل الزينة التي أضافتها الألسن.

لقد كانت عظمتها من النوع الذي يخسر حين نبالغ فيه؛ لأن كل مبالغة تحجب تفصيلًا صحيحًا كان وحده كافيًا لإدهاشنا.

كانت تصلي، وتردد، وتبكي، ويذهب الوقت، وتبقى.

أليس في هذا ما يكفي؟

الصِّيَامُ: حِينَ يَتَخَفَّفُ الْجَسَدُ لِيَقْوَى الْقَلْبُ

ورُوي عن عروة والقاسم أنها كانت تسرد الصوم؛ أي تكثر منه وتتابعه، مع استثناء الأيام التي يحرم صومها. وذكر البيهقي ذلك بأسانيده، وصحح النووي إسناد خبر صيامها في السفر والحضر. وقد جمع أهل العلم آثار كثرة صيامها وبيّنوا وجه حملها .

كان الصيام عندها عبادةً تعرف معناها من النبي ﷺ قبل أن يكون مجاهدةً شخصية. فقد روت أنه كان يصوم حتى يظن الناس أنه لا يفطر، ويفطر حتى

يظنوا أنه لا يصوم، وأنه لم يستكمل صيام شهر غير رمضان، وكان يكثر الصيام في شعبان. وهذا وصفها الثابت لصيامه ﷺ .

عرفت من هديه أن العبادة ليست عنفًا مع الجسد، ولا استعراضًا للقدرة على الحرمان؛ إنها تربية للإرادة، وإعادة لترتيب العلاقة بالشهوة والزمن. فإذا أكثرت من الصيام بعده، لم تكن تبتدع طريقًا لا تعرفه، بل كانت تمضي في المدرسة التي عاشت تفاصيلها.

وربما كان الصيام أشد التصاقًا بحياتها من عبادات يراها الناس؛ لأن كثيرًا من أيامه تمر ولا يعرف السائلون الواقفون عند الباب أنها لم تطعم. تجيبهم، وتراجعهم، وتروي لهم، وتوزع ما يأتيها، والجوع قائم في جسدها لا تستخدمه حجةً للتوقف عن مسؤوليتها.

الصائم يحمل سرًّا جسديًّا بينه وبين الله. يستطيع أن يشرب بعيدًا عن أعين الناس فلا يعلمون، ولذلك كان الصوم من أصفى العبادات في دلالته على المراقبة. وعائشة التي عاشت زمن الإفك، ورأت الفرق بين صورة الإنسان في كلام الناس وحقيقته في علم الله، كانت تعرف أن أعظم الأعمال ما استند إلى شهادة الله لا إلى رؤية الخلق.

في الإفك كان الله وحده يعلم براءتها علمًا لا يداخله احتمال، وفي الصيام كان الله وحده يعلم صدق جوعها.

كأن حياتها كلها تعيدها إلى المعنى نفسه: حسب الإنسان أن يعرفه الله.

عِبَادَةٌ بُنِيَتْ عَلَى الْعِلْمِ

لم تكن عبادة عائشة اندفاعًا عاطفيًّا بلا فقه، كانت تعرف السنن والأحكام، وتميز الفريضة من النافلة، وتعرف متى يكون التيسير سنةً، ومتى يكون العمل شاقًّا على النفس لكنه محبوبًا إلى الله. ولذلك لم تكن كثرة عبادتها سببًا لتضييق الدين على الناس.

وهذا فرق بعيد بين العابد الفقيه والعابد الذي لا يملك إلا حماسته. قد يطيق الإنسان عملًا فيظن أن الجميع مطالبون به، أو يجد لذةً في عبادة فيجعلها مقياس صلاح الناس. أما عائشة فكانت تحفظ تنوع فعل النبي ﷺ، وتعلم أنه أوتر أول الليل وآخره، وأسر بالقراءة وجهر، وصام وأفطر، وصلى قائمًا وقاعدًا في بعض أحواله.

كانت تجتهد في نصيبها، وتحفظ للناس سعة الشريعة.

لم تجعل صيامها الطويل فتوى تلزم غيرها، ولم تجعل قيامها معيارًا تتهم به من نام. فالتعبد شأن بين العبد وربه، والفتوى شأن تحكمه الأدلة وأحوال المكلفين. وقد استطاعت بعقلها الفقهي أن تمنع حرارة تجربتها الخاصة من أن تتحول إلى ضيق عام.

إن بعض الناس يعبد الله بما يحب، ثم يريد من الجميع أن يحبوا الصورة نفسها. أما العالم فيعرف أن أبواب الخير متعددة، وأن ما يفتح لقلب قد لا يكون هو الباب الأوسع لقلب آخر.

وكانت عائشة تعرف من السنة أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل؛ فعبادتها لم تكن ومضات حماس تنطفئ، بل صحبة طويلة للصيام والصلاة والقرآن. والدوام هو الذي يصنع الروح؛ لأن القلب لا يتغير باللحظة العالية وحدها، بل بتكرار العودة إلى الله في الأيام العادية.

دُعَاءُ الْعَفْوِ

سألت رسول الله ﷺ: إن وافقت ليلة القدر، فماذا تقول؟ فعلّمها أن تقول: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني».

كانت تستطيع أن تسأل عن دعاء طويل يجمع مطالب الدنيا والآخرة، فعلمها النبي ﷺ أن تختصر غاية الليلة كلها في العفو. فالعبد مهما عبد، يبقى محتاجًا إلى أن يمحو الله عنه؛ ومهما أحسن، يعرف من نفسه ما لا يعرف الناس؛ ومهما كثرت مناقبه، لا يدخل على ربه بملف تزكية، بل بقلب يقول: اعف عني.

ولعل هذا الدعاء صار أقرب إلى قلبها كلما امتد بها العمر. في شبابها كان رجاء العفو متعلقًا بضعف البشر العام، ثم جاءت تجربة الإفك والجمل والمواقف والاجتهادات، فصار لكلمة «اعف عني» تاريخ شخصي كامل.

لم تكن تسأل عفوًا لأنها تنكر ما أنعم الله به عليها من الخير، بل لأنها تعرف أن الحسنات نفسها تحتاج إلى قبول، وأن العمل قد يدخله من النقص ما لا يراه صاحبه. وفرق بين من ييأس من نفسه ومن يرجو العفو؛ اليائس يرى ذنبه أكبر من الرحمة، والراجي يرى الرحمة أكبر لكنه لا يستخف بذنبه.

وكانت عائشة من أهل الرجاء الخائف، تبكي عند ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾، ثم تكمل الآية إلى ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾. الخوف لا ينتهي عند النار، بل يقوده إلى اسمين من أسماء الرحمة: البر الرحيم.

عبادتها لم تكن فزعًا في كون مظلم، كانت خوفًا بين يدي رب تعرف بره.

لَمْ تُغْنِهَا الْمَكَانَةُ عَنِ الْخَشْيَةِ

كانت تستطيع أن تستريح إلى مناقبها: اختارها الله زوجةً لنبيه ﷺ، ونزل جبريل بالسلام عليها، وتوفي النبي ﷺ في بيتها ويومها وبين سحرها ونحرها، ونزل القرآن ببراءتها، وحملت للأمة علمًا عظيمًا.

لكن المؤمن لا يتعامل مع الفضائل بوصفها صك أمان، يراها نعمًا تستوجب شكرًا ومسؤولية. وكلما عظمت النعمة، ازداد سؤال الأداء: ماذا صنعت بما أعطاك الله؟

كانت تعرف أن قربها من النبي ﷺ يضاعف الأمانة. لقد رأت ما لم يره غيرها، وسمعت ما غاب عنهم، وحملت علمًا سيبني عليه الناس عباداتهم؛ فكيف لا تخاف من كلمة تنقلها أو فتوى تقولها أو موقف تقف فيه؟

ولذلك كان خوفها عند الموت شديدًا، ورفضت أن يغرقها ابن عباس في الثناء. ليست المشكلة أن المديح كاذب، كان ما ذكره حقًّا. لكن قلبها كان ينتقل من محكمة الناس إلى محكمة الله، وهناك لا يطلب العبد من أحد أن يقرأ عليه مناقبه، يطلب رحمة ربه.

إن الإنسان كلما قل علمه بالله اطمأن إلى صورته في أعين الناس، وكلما عرفه عرف أن وراء الصورة سريرةً لا يعلمها إلا الله.

وكانت عائشة شديدة العلم، ولذلك كانت شديدة الخوف.

الْحُجْرَةُ الَّتِي تَحْمِلُ ذَاكِرَةَ الْحَبِيبِ

كانت تصلي في مكان عاش فيه رسول الله ﷺ، وفي جوار الموضع الذي دُفن فيه. كل زاوية في الحجرة تحمل ذكرى: هنا صلى، وهنا نام، وهنا مرض، وهنا استاك، وهنا كان رأسه حين فاضت روحه.

لم تكن العبادة في ذلك المكان منفصلةً عن الحب. حين تقوم من الليل ربما استحضرت قيامه، وحين تتوضأ تذكرت هيئته، وحين تقرأ القرآن سمعت في ذاكرتها صوته. لقد رحل الجسد، لكن الهدي بقي يملأ المكان.

غير أن محبتها لم تتحول إلى تعلق بالمكان يغني عن رب المكان. كان النبي ﷺ هو الذي علمها أن العبادة لله وحده، وأن أعظم الوفاء له اتباعه. لذلك لم تجعل الحجرة مزارًا لعاطفتها الخاصة؛ جعلتها موضعًا تستمر فيه الرسالة التي حملها.

ربما كان الفقد نفسه أحد أسرار طول قيامها؛ فمن أحب عبدًا صالحًا ثم فقده يستطيع أن يحفظ صلته به في الطريق الذي كان يحبه. وكانت الصلاة الطريق الأصفى الذي تعرف فيه أثر النبي ﷺ، لا لأنها تصلي له، حاشا لله، بل لأنها تعبد الله كما علمها رسول الله.

كان حبها يتحول إلى اتباع، والذكرى تتحول إلى طاعة.

الْعَالِمَةُ الَّتِي لَمْ تَعْبُدْ عِلْمَهَا

قد يقع العالم في فتنة خفية: أن يصبح العلم هو الحجاب الذي يمنعه من الشعور بالحاجة. يعرف تفسير آيات الخوف، ودرجات الأحاديث، ومسائل الصلاة، حتى تتحول العبادات في ذهنه إلى موضوعات يفحصها بدل أن تكون أبوابًا يدخل منها إلى الله.

لكن عائشة لم تكن تشرح البكاء فقط؛ كانت تبكي. لم تكن تروي قيام النبي ﷺ ثم تكتفي بوصفه؛ قامت. ولم تكن تعرف أحكام الصيام من الخارج؛ ذاقت الجوع. ولم تكن تحفظ دعاء العفو لتعلمه الناس وحدهم؛ كانت هي أول المحتاجين إليه.

بقيت المسافة مفتوحةً بين عقلها وقلبها. كل معرفة تتحول إلى عبادة، وكل عبادة يضبطها العلم.

وهذا هو التكامل الذي جعل شخصيتها نادرةً: لم يذب عقلها في العاطفة، ولم يجف قلبها تحت كثرة المسائل. كان الاستدلال يقودها إلى الخشية، والخشية تمنح استدلالها إخلاصًا وتواضعًا.

عند كثير من الناس يتضخم العلم حتى يكاد صاحبه يرى نفسه فوق العامة، أما علم عائشة فكان يكشف لها اتساع ما ستسأل عنه. كل حديث حفظته أمانة جديدة، وكل سائل أجابته موقف سيعود أمام الله.

كان الناس يرون في علمها منزلةً، وكانت ترى فيه تبعة.

دُمُوعٌ لَا تُنَاقِضُ قُوَّةَ الشَّخْصِيَّةِ

ربما يتوهم بعض الناس أن المرأة القوية لا تبكي، وأن حدة العقل تستلزم جفاف العاطفة. لكن عائشة جمعت بين قوة لا تخاف مراجعة كبار الصحابة ودمعة تقف طويلًا عند آية.

لم يكن بكاؤها ضعفًا في الحجة، كان قوةً في الصلة بالله. الإنسان الذي لا يبكي قد يكون قد أقام جدارًا بينه وبين أعمق حقائقه، أما هي فلم تكن تخشى أن تكون رقيقةً في محرابها وحازمةً في مجلس العلم.

بكت في الإفك لأنها ظُلمت، وبكت عند موت النبي ﷺ لأنها فقدت، وبكت بعد الجمل لأنها رأت المآل، وبكت في الصلاة لأنها خافت ورجت. لم تكن الدموع عندها معنىً واحدًا، كانت لغة القلب حين تعجز اللغة التي شهد الناس بفصاحتها.

كأن الله منحها فصاحتين: فصاحةً تخاطب بها البشر، ودمعةً تخاطبه بها حين لا يبقى للكلام موضع.

بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ

لم تكن عبادتها قائمةً على الرعب المجرد، فالآية التي وقفت عندها تبدأ بالخوف وتنتهي بالرحمة. أهل الجنة كانوا في الدنيا مشفقين، ثم قالوا إن الله منَّ عليهم، وإنهم كانوا يدعونه، وإنه هو البر الرحيم.

هـذا هـو البنـاء الداخلي لعبادتهـا: إشـفاق يدفع إلى العمـل، ودعاء يعلن الافتقار، ورجاء في بر الله ورحمته. لو كان خوفها يأسًا لما صلت، ولـو كان رجاؤها أمنًا لما بكت.

الخوف الصحيح لا يقـول للإنسـان إن باب الله مغلق؛ يقـول إن الطريـق جاد. والرجاء الصحيح لا يقول إن العمـل لا حاجة إليـه؛ يقـول إن العمـل وحده لا يكفي دون فضل الله.

وعاشت عائشة بين الجناحين. تصوم كأن عليها أن تبذل كل ما تستطيع، وتدعو كأنها لا تملك لنفسها شيئًا. تقوم طويلًا، ثم تسأل الله أن يمن عليها. تحمل مناقب عظيمةً، ثم تقول: اعف عني.

كانت تعرف أن العبودية ليست صفقة يقدم فيها الإنسان طاعته ثم يطالب بالجنة؛ إنها حب وخوف ورجاء وافتقار.

الصَّائِمَةُ الَّتِي مَرَّ الْمَالُ مِنْ يَدِهَا وَلَمْ يَدْخُلْ قَلْبَهَا

وسيجتمع صيامها وزهدها في مشاهد أخرى تكشف أن العبادة لم تبق داخل المحراب. فقد يأتيها المال وهي صائمة، فتوزعه كله، ثم يحضر المساء ولا تجد في بيتها إلا طعامًا يسيرًا تفطر عليه.

كان في استطاعتها أن تجعل الصيام سببًا للاحتفاظ بشيء لنفسها؛ لكنها حين ترى حاجة الناس تنسى حاجتها، وكأن الجوع الذي يذكر الإنسان عادةً بجسده كان يذكرها بأجساد الفقراء.

وهناك ستظهر الصدقة لا بوصفها بابًا منفصلًا عن الصلاة والصيام، بل امتدادًا لهما. فالذي يقف طويلًا عند قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يرى كل مال يصل إليه منةً لا ملكًا خالصًا، ويسأل نفسه: كيف يعبر هذا الفضل من يدي إلى من يحتاج إليه؟

كانت حجرتها تعرف عبادة الليل، لكنها كانت تعرف في النهار عبادةً أخرى: أن يدخل إليها المال كثيرًا، ثم يخرج منها قبل أن تستقر صورته في قلبها.

وفي تلك اليد التي تعطي حتى تنسى إفطارها سنرى الوجه العملي لخشيتها؛ فالزهد عند عائشة لم يكن ثوبًا مرقعًا وحده، بل قدرةً على أن تملك المال لحظةً دون أن يملكها.

الْفَصْلُ الْحَادِي عَشَرَ

الْيَدُ الَّتِي تُفْرِغُ الدُّنْيَا مِنْ سُلْطَانِهَا

ليس الزهد أن يكره الإنسان نعمة الله، ولا أن يتخذ الفقر مظهراً يتباهى به، ولا أن يلبس الخشن ليعرف الناس أنه أعرض عن الناعم؛ فالزهد الذي يتحول إلى صورة اجتماعية قد يصبح نوعًا آخر من حب الدنيا، يستبدل لذة المال بلذة السمعة.

الزهد الحقيقي ألا يقيم الشيء في القلب وإن دخل اليد، وألا تتحول النعمة إلى سيد خفي يأمر صاحبها بالخوف من فقدها، وأن يستطيع الإنسان أن يملك المال دون أن يملك المال روحه.

وكانت عائشة رضي الله عنها زاهدةً بهذا المعنى. عرفت قلة الطعام في بيت النبوة، ثم أدركت زمنًا اتسعت فيه الدولة، وصارت الأموال والهدايا تصل إليها بمقادير كبيرة. لم يكن زهدها اضطرارًا دائمًا فرضه غياب المال؛ فقد جاءها المال، وهنا ظهر جوهرها: كان يدخل حجرتها ثم لا يجد في قلبها مكانًا يقيم فيه.

ينتقل من يد المرسل إلى يدها، ثم يتشعب سريعًا في بيوت المحتاجين.

كانت تعرف قيمة الدرهم، وتعرف ما يستطيع أن يصنعه في بيت فقير، لكنها لم تر فيه ضمانًا للمستقبل. كان ضمانها في الله، ولذلك تعاملت مع المال بوصفه رزقًا عابرًا اختار الله يدها لتكون طريقه إلى غيرها.

لم تكن خزانةً للنعمة، بل مجرىً لها.

الْبَيْتُ الَّذِي مَرَّتْ عَلَيْهِ الْأَهِلَّةُ بِلَا نَارٍ

سألها عروة بن الزبير عن حياة رسول الله ﷺ في بيته، فقالت: «والله يا ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار».

سألها: فما كان يعيشكم؟

قالت: «الأسودان: التمر والماء»، إلا أن جيرانًا من الأنصار كانت لهم منائح، فيرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيهم. والحديث ثابت في الصحيحين.

ثلاثة أهلة تمر، ولا نار توقد لطعام مطبوخ. لم يكن بيت النبوة مسرحًا للترف الذي قد يتوقعه الناس في بيت قائد دانت له الجزيرة؛ كان مكانًا تمر فيه الأيام على تمر وماء، ويأتي اللبن هديةً من جيران محبين.

عاشت عائشة الجوع لا بوصفه فكرةً تروى عن الزاهدين، بل إحساسًا في الجسد. عرفت ماذا يعني أن يأتي المساء وليس في البيت ما يطبخ، وأن يعتمد أهله على ما يرسله جار، وأن يكون الطعام القليل نعمةً تُذكر.

لكنها رأت كذلك أن قلة الطعام لم تجعل النبي ﷺ ضيقًا بالناس، ولا شحيحًا بما يصل إليه. كان يعطي، ويؤثر، ويستقبل الضيف، ويمضي إلى ربه ولم

يدخر دنيا. تعلمت منه أن القلة لا تبرر قسوة القلب، وأن من لا يملك إلا قليلًا يستطيع أن يكون كريمًا بقدره.

وقد يكون العطاء من القليل أصدق كشفًا للروح؛ فالغني إذا أعطى جزءًا لم يشعر بالنقص، أما من يعطي وهو يعرف الجوع فقد قدم للآخر شيئًا من أمانه الشخصي.

كانت ذاكرة التمر والماء حاضرةً في يد عائشة حين بدأت الأموال تصل بعد اتساع الدولة. لم تنظر إلى المال الجديد بوصفه تعويضًا متأخرًا عن سنوات الحرمان، لم تقل: عشت القلة وحان لي أن أجمع. لقد صنعت فيها القلة حريةً، لا نهمًا.

من عرف أنه يستطيع أن يعيش على التمر والماء لا يخيفه أن يخرج المال من يده.

التَّمْرَةُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي الْبَيْتِ سِوَاهَا

دخلت عليها امرأة فقيرة تحمل ابنتين وتسأل شيئًا، فلم تجد عائشة في بيتها إلا تمرةً واحدةً، فأعطتها إياها. أخذت الأم التمرة، فشقتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئًا، ثم قامت وخرجت.

لما دخل رسول الله ﷺ أخبرته عائشة بما صنعت المرأة، فقال إن من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترًا من النار. وأصل القصة ثابت في الصحيحين .

إن قولها: «فلم تجد عندي غير تمرة» يرسم فقر البيت كله. لم تكن عائشة تخفي طعامًا أفضل ثم اختارت التمرة للفقيرة؛ لم يكن لديها سواها. ومع ذلك لم تقل: هذه حاجتي، وأنا أحق بها. دفعت آخر ما في البيت إلى يد السائلة.

ثم وقفت تتأمل ما صنعت الأم. كانت هي المعطية أولًا، لكنها تحولت إلى متعلمة أمام إيثار امرأة مجهولة. لقد أعطتها تمرةً، فأرتها المرأة معنى أعمق للعطاء: شقتها بين ابنتيها وحرمت نفسها.

لم تنظر عائشة إلى الفقيرة من أعلى بوصفها صاحبة فضل عليها؛ رأت فضيلتها، وأعجبها حنانها، وذهبت تروي الموقف للنبي ﷺ. كان الفقير في حجرتها قادرًا على أن يكون معلمًا، وكان الغنى الأخلاقي لا يتبع مقدار ما يملك الإنسان.

وفي رواية أخرى جاءت امرأة معها ابنتان، فأعطتها عائشة ثلاث تمرات، أعطت الأم كل بنت تمرةً، ثم أرادت أن تأكل الثالثة، فطلبتها ابنتاها، فشقتها بينهما. فأخبر النبي ﷺ أن الله أوجب لها بها الجنة أو أعتقها من النار. وهذه الرواية ثابتة في صحيح مسلم .

تمرة واحدة تدخل في ميزان الجنة.

ليست قيمة الصدقة في حجمها المادي وحده، بل في مقدار الرحمة التي تحملها، وفيما اقتطعته من حاجة صاحبها. قد يوزع الغني آلافًا ويبقى في قلبه

مكان واسع لنفسه، وتشطر أم جائعة تمرةً فتبلغ بها الجنة؛ لأن الله لا ينظر إلى العدد مجردًا، بل إلى ما وراءه.

تعلمت عائشة من ذلك اليوم أن العطاء ليس حكرًا على أهل السعة. وستأتي عليها أيام توزع فيها عشرات الآلاف، لكن التمرة بقيت المقياس: المال الكثير لا يساوي شيئًا إذا لم يحمل رحمة التمرة الواحدة.

مَائَةُ أَلْفٍ تَعْبُرُ الْحُجْرَةَ

اتسعت الفتوحات، وكثرت أموال الدولة، وصارت تُرسل إلى أمهات المؤمنين الأعطيات والهدايا. وروى عروة أن معاوية رضي الله عنه بعث إلى عائشة بمائة ألف درهم، فقسمتها ولم تترك منها شيئًا.

كانت صائمةً، فقالت لها خادمتها: هلا ابتعت لنا بدرهم لحمًا؟

قالت عائشة: لو ذكرتني لفعلت.

وقد أورد الزركشي هذا الأثر من رواية الحاكم، كما نقل خبر تصدقها بسبعين ألفًا مع كونها ترقع ثوبها. وهنا نص الخبر وتخريجه في كتاب «الإجابة»

.

ليست المائة ألف في الخبر رقمًا للزينة؛ إنها امتحان مفاجئ لطبيعة القلب. قد يظن المرء نفسه زاهدًا ما دام لا يملك، فإذا وُضع المال أمامه عرف مقدار تعلقه به. عائشة التي عاشت أعوامًا على التمر والماء جلست أمام مبلغ يستطيع أن يغير مستوى حياتها كلها، ثم لم تمسِ حتى خرج من يدها.

والأعجب أنها كانت صائمة. كان جسدها يقترب من الإفطار، وكان يمكن أن تقتطع درهمًا واحدًا للحوم، ولم يكن ذلك يناقض الزهد أو الورع؛ فقد قالت بنفسها إنها لو ذُكرت لفعلت. لكنها انشغلت بحاجات الناس حتى لم يخطر طعامها ببالها.

هذه الجملة الصغيرة تمنعنا من تحويلها إلى صورة متكلفة للحرمان: لم تقل إن شراء اللحم بدرهم معصية، ولم تعنف خادمتها لأنها فكرت في الطعام، بل قالت: لو ذكرتني لفعلت. كانت طبيعيةً في حاجتها، غير أن حاجات الآخرين سبقت حضور حاجتها في ذهنها.

الزهد هنا ليس تحريم الطيب، بل خفة النفس أمامه.

ولم تكن تحتقر الجسد؛ كانت فقط تنساه حين ترى الفقير.

الْغِرَارَتَانِ اللَّتَانِ فَرَغَتَا قَبْلَ الْمَسَاءِ

وروت أم ذرة، وكانت تدخل على عائشة، أن عبد الله بن الزبير بعث إليها بمال في غرارتين كبيرتين. اختلفت الروايات في مقدار المال؛ فقيل مائة ألف، وقيل قرابة مائة وثمانين ألفًا. فدعت بطبق، وكانت صائمةً، وجلست تقسم المال بين الناس حتى أمست ولم يبق عندها منه درهم.

فلما جاء وقت الإفطار طلبت من جاريتها طعامها، فجاءتها بخبز وزيت. قالت لها أم ذرة: أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحمًا؟

فقالت: لا تعنفيني، لو كنت ذكرتني لفعلت.

وأصل الخبر محفوظ في مصادر الزهد والطبقات بأسانيده، مع اختلاف في تقدير المبلغ. وهنا طرق الرواية في «الزهد» لهناد و«الطبقات الكبرى» .

تتكرر الجملة لأنها تكشف عادةً لا حادثةً منفردة. يأتي المال، وتبدأ فورًا في توزيعه، ثم إذا فرغت اليد تذكرت النفس أن لها حاجةً صغيرةً. لم تضع خطةً لتجميل صورتها أمام الناس، ولم تطلب أن يُكتب اسمها على ما أعطت؛ كانت العلاقة مباشرةً بين المال والحاجة: ما دام هناك محتاجون، فما وظيفة بقائه؟

ولعل وجود الطبق في وسطها يرسم المشهد: أكياس كبيرة تصل، فتفرغ منها المال، ثم تجعل تقسم. وجوه تمر، وأيد تمتد، وأسماء تعرفها، وبيوت تعلم حالها. ينقص المال في الطبق وتخف الأكياس، لكن شعورًا آخر يمتلئ في الحجرة: أن رزق الله وصل إلى مواضعه.

ثم تغيب الشمس، وتفطر صاحبة المائة ألف على خبز وزيت.

ليست العظمة في نوع إفطارها وحده؛ فقد يكون الخبز والزيت طعامًا تحبه أو تقبله ولا تجد فيه مشقة. العظمة في أن إمكان الترف كان بين يديها صباحًا، ثم لم تر حاجةً إلى حبسه حتى المساء.

كثيرون يزهدون فيما لا يستطيعون الوصول إليه، أما هي فقد وصل إليها ثم عبرها.

سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَوْبٌ مُرَقَّعٌ

ورُوي عن عروة أنه رآها تقسم سبعين ألف درهم وهي ترقع جانب ثوبها. صورة تبدو كأنها صنعت لتكون رمزًا، غير أن كتب التراجم حفظتها: مال كثير يخرج، وثوب بسيط يُصلح بدل أن يستبدل.

لم تكن تقول: ما دمت أوزع المال فينبغي أن يراني الناس في أحسن الثياب مكافأةً لي؛ ولم تقل: إن منزلتي أم المؤمنين تقتضي مظهرًا يناسب ما يتخيله الناس عن العظماء. كانت قيمة الثوب عندها في ستره ونفعه، فإذا أمكن إصلاحه أصلحته.

لكن ذلك لا يعني أنها كانت تعادي الجمال أو ترى النظافة والتزين نقصًا في الدين؛ فقد عاشت زوجةً تعرف حقوق البيت، وعرفت الطيب والزينة المشروعة. الزهد ليس خصومةً مع الجمال، وإنما خصومة مع استعباد المظهر للإنسان.

الفرق أن يلبس المرء الجميل لأنه نعمة مباحة، وأن يحتاج إلى الجميل حتى يشعر بقيمته. كانت قيمة عائشة ثابتةً لا يضيف إليها الثوب ولا يسلبها.

وقد لبست ثوبًا بسيطًا يمكن لجارية أن تترفع عن لبسه، بينما كانت هي أم المؤمنين لا ترى في ذلك غضاضة. الثوب يغطي الجسد، أما الكرامة فمصدرها أعمق.

حين يقترن المال الموزع بالثوب المرقع نفهم أن الصدقة لم تكن فائضًا بعد استيفاء كل رغباتها؛ كانت ترتيبًا مختلفًا للأولويات. حاجة البعيد قد تتقدم

على تحسين ثوبها، لأن الثوب ما يزال يؤدي وظيفته، بينما جوع الفقير لا ينتظر.

لَمْ تَكُنِ الصَّدَقَةُ فَوْضَى

وقد يتوهم القارئ أن توزيعها السريع للمال نوع من الاندفاع الذي لا يميز بين الحقوق، لكن عائشة كانت فقيهةً تعرف الفرائض والديون والنفقات، وتدرك أن الإنسان لا يتقرب إلى الله بإضاعة حق واجب. لم يكن زهدها جهلًا بتدبير المال، بل اختيارًا شخصيًّا في المساحة التي تملكها.

كانت تعرف أن للوارث حقًّا، وللدائن حقًّا، ولمن تلزم نفقته حقًّا، وأن الصدقة النافلة لا تهدم واجبًا. لكن ما صار خالصًا لها لم تر في قلبها حاجةً إلى حبسه.

إن الكرم الذي يصدر عن فقيه يختلف عن اندفاع العاطفة؛ فهو يعرف حدود الملك والواجب، ثم يختار بعد أداء الحق أن يترك نصيبه يمر. ولم تكن عائشة تفرض حالها على جميع المسلمين، أو تقول إن كمال الإيمان يقتضي أن يوزع كل إنسان ماله كله؛ كانت تعيش مقامًا فتحه الله لها، بينما تفتي الناس بما يحتمله الدليل وتراعي اختلاف أحوالهم.

الزهد تجربة قلبية لا قانون مالي عام.

قد يكون بقاء المال في يد إنسان أصلح لأنه يعول أسرةً أو يبني مشروعًا نافعًا، وقد يكون خروجه من يد آخر أطهر لقلبه وأنفع لمجتمعه. وكانت عائشة تعرف أن العبادة لا تنفصل عن الحكمة.

مِيرَاثُ أَبِي بَكْرٍ فِي يَدِ ابْنَتِهِ

وراء يدها المعطية ظل يد أبيها. فقد نشأت ترى أبا بكر ينفق ماله في نصرة الإسلام، ويفتدي المستضعفين، ويهيئ للهجرة، ويضع ما يملك في طريق الدعوة. لم يكن المال في بيت الصديق معيارًا لقيمة صاحبه، بل وسيلةً يظهر بها صدقه.

وحفظت عائشة بكاء أبيها حين اختاره النبي ﷺ للصحبة، ورأت كيف يكون الحب تضحية. ثم عاشت مع رسول الله ﷺ الذي كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ويمر عليه الشهر بعد الشهر ولا توقد في بيته نار.

اجتمع في تربيتها نموذجان: أبو بكر الذي يضع ماله في سبيل ما آمن به، ومحمد ﷺ الذي لا تقيم الدنيا في يده طويلًا. فكيف كان يمكن للدراهم بعد ذلك أن تبني في قلبها عرشًا؟

لم تكن صدقتها خلقًا طارئًا ولد بعد الغنى؛ كانت ثمرة بيتين: بيت الصديق الذي رأى المال جنديًّا في خدمة الحق، وبيت النبوة الذي عاش الكفاية ولم يعرف التعلق.

وحين كانت توزع المال، لم تكن تقلد فعلًا خارجيًّا؛ كانت تستعيد اللغة الأخلاقية التي تكلم بها البيت الأول منذ طفولتها: ما عند الله أبقى.

أُمُومَةٌ لَمْ تَلِدْهَا الْأَرْحَامُ

لم يكن لعائشة ولد من رسول الله ﷺ، لكن الله سماها وأزواجه أمهات للمؤمنين. ولم تبقَ هذه الأمومة حكمًا يحرم نكاحهن بعد النبي ﷺ ويقرر حرمتهن؛ ظهرت في التعليم والرعاية والإنفاق.

كان تلاميذها يقولون لها: يا أمتاه، ويقصدها الفقير كما يقصد بيت أم يرجو ألا يرده. لم تلد أبناءً من جسدها، لكنها شاركت في ولادة عقول، وأشبعت محتاجين، وحملت هموم بيوت لم تسكنها.

والأمومة أوسع من رابطة الدم؛ إنها أن يتسع في قلب الإنسان موضع لضعف غيره، وأن يشعر أن حاجة البعيد ليست شأنًا لا يعنيه. وقد كانت عائشة ترى في المؤمنين أبناءً بالمعنى الذي جعل القرآن أزواج النبي ﷺ أمهاتهم.

ربما لهذا كان المال لا يستقر؛ فالأم التي تسمع جوع أبنائها لا تستطيع أن تنام مطمئنةً إلى امتلاء خزانتها.

ولم يكن عطاؤها استعلاءً على الفقير؛ فقد عرفت الجوع بنفسها، وعاشت التمر والماء، ومدت يدها يومًا إلى هدية اللبن من جيران الأنصار. كانت تعرف أن المحتاج لا يصبح أقل كرامةً بسبب حاجته، وأن الأيام تدير الأرزاق بين الناس.

من ذاق الأخذ بأدب يعرف كيف يعطي بلا إذلال.

الْمَالُ الَّذِي يَكْشِفُ الْقَلْبَ

كان من الممكن أن تصنع الأموال التي وصلت إلى عائشة طبقةً بينها وبين الناس؛ خدمًا أكثر، وطعامًا أطيب، وثيابًا أفخر، وحياةً تنسى فيها الحجرة القديمة. لكنها أبقت المال خارج بنيتها الداخلية.

لم تكن تخافه، ولم تقدسه، ولم تحتقره. تعرف أنه يستطيع أن يطعم جائعًا، ويكسو عاريًا، ويقضي دينًا، ويصل رحمًا؛ لذلك لم ترمه ولم تفسده، بل وجهته. لكنها كانت تعرف كذلك أنه يستطيع أن يصنع في القلب قلقًا لا ينتهي: كلما جمع الإنسان أكثر خاف أكثر، وكلما اتسعت خزائنه ضاقت روحه بحراستها.

اختارت أن تستخدم قوته قبل أن يستخدم ضعفها.

فالمال حين يدخل يد الزاهد لا يفقد قيمته؛ يفقد سلطانه. يبقى درهمًا يشتري طعامًا، لكنه لا يعود صوتًا يهمس لصاحبه: احتفظ بي، فالمستقبل مخيف. كانت عائشة ترى المستقبل في يد الله، وترى الدرهم في يدها تكليفًا حاضرًا.

ولهذا لم يكن كرمها احتقارًا للدنيا بوصفها خلقًا من خلق الله؛ كان وضعًا لها في حجمها الصحيح. الدنيا معبر، والمال أداة، والجسد يحتاج إلى طعام، لكن المصير أبعد من ذلك كله.

بَيْنَ تَمْرَةٍ وَمِائَةِ أَلْفٍ

في أول حياتها دخلت عليها امرأة فلم تجد إلا تمرةً واحدةً، فأعطتها. وفي آخر مراحل حياتها دخلت عليها أموال بعشرات الآلاف ومئاتها، فأعطتها.

تغير مقدار ما في اليد، ولم تتغير حركة اليد.

وهنا يظهر ثبات الخلق؛ فالكرم ليس رقمًا، بل اتجاه. حين لم تجد إلا تمرةً خرجت التمرة، وحين وجدت مائة ألف خرجت المائة ألف. لم تكن تنتظر الغنى كي تصبح معطيةً، ولذلك لم يستطع الغنى أن يغيرها حين جاء.

قد يقول الفقير: لو كان عندي لأعطيت. لكن الامتحان الأول ليس فيما لا يملك؛ بل فيما في يده الآن، ولو كان تمرة. من تعلم العطاء في القلة عرفه في الكثرة، ومن ربى نفسه على الإمساك بالقليل قد يزداد إمساكًا حين يكثر.

كانت التمرة تدريبًا على المائة ألف، وكانت المائة ألف شهادةً بأن التمرة لم تكن موقفًا عابرًا.

زُهْدٌ لَمْ يَنْسَ الْحَيَاةَ

لم تكن عائشة راهبةً تفر من الناس إلى عزلة تحمي طهارتها؛ كانت في قلب المجتمع: تعلم، وتفتي، وتحاور، وتصلح، وتعطي. زهدها لم يكن انسحابًا من الحياة، بل حريةً داخلها.

كانت تعرف الطعام والطيب والشعر والحب والمزاح، وتعرف حاجات النفس، لكنها لم تجعل شيئًا من ذلك ربًّا صغيرًا. أخذت من الدنيا ما يقيم إنسانيتها، ثم لم تسمح لها أن تقيم داخل القلب.

وهذا هو الزهد القرآني: ليست المشكلة أن توجد النعمة، بل أن يتكاثر بها الإنسان حتى تلهيه؛ وليست الفضيلة في إتلاف المال، بل في أن يكون المال في خدمة الخير. لذلك كان عطاؤها بناءً، لا مجرد التخلص مما تملك.

خرجت الدراهم من حجرتها لتصبح خبزًا في بيوت، وثيابًا على أجساد، وطمأنينةً في قلوب. لم تختفِ الأموال؛ تغيرت صورتها الأخلاقية.

كانت أرقامًا في غرارتين، فصارت حياةً موزعةً بين الناس.

الْيَدُ الَّتِي بَقِيَتْ فَارِغَةً وَالْقَلْبُ الَّذِي امْتَلَأَ

عند المساء فرغ الطبق، ولم يبق درهم، وجاء الإفطار خبزًا وزيتًا. يستطيع الناظر المادي أن يقول إن عائشة فقدت ثروةً كبيرةً في يوم واحد؛ لكن ميزانها كان يرى أن المال لم يُفقد، بل وُضع حيث أرادت أن تلقاه.

ما بقي في يد الإنسان يتركه عند الموت، وما أخرجه لله ينتظره.

كانت تفهم هذا لا بوصفه عبارةً وعظيةً، بل حقيقةً تحكم قرارها حين يكون المال أمامها. لذلك لم تحتج إلى صراع طويل مع نفسها كلما أعطت؛ كأن البذل صار طبيعتها الثانية، وصارت اليد تعرف الطريق قبل أن يبدأ الحساب.

لقد دخلت الدنيا حجرتها مرات، لكنها لم تستطع أن تحول الحجرة إلى قصر، ولا أم المؤمنين إلى سيدة تجمع حولها مظاهر الرفاه. بقي المكان بسيطًا، وبقيت ثياب تُرقع، وبقي الإفطار القليل، بينما اتسعت آثار اليد إلى بيوت كثيرة.

ومن هنا نفهم أن عظمتها لم تكن في عقلها وحده، ولا في فصاحتها وحدها، ولا في شجاعتها وحدها. كانت تلك القوى كلها محكومةً بقلب يعرف أن ما عند الله خير وأبقى.

العلم أعطاها مكانةً بين الناس، والزهد حررها من الحاجة إلى مكانتهم.

البيان منحها قدرةً على التأثير، والعبادة منعتها من عبادة تأثيرها.

والمال دخل يدها، فحوّلته الرحمة إلى طريق نحو الآخرين.

لم تخرج من الدنيا وهي تملك خزانةً تروي قصتها، لكنها تركت ما هو أبقى: علمًا في الكتب، وأثرًا في الأرواح، ونموذجًا لامرأة امتلكت من القوة ما يجعلها تجمع، ثم امتلكت من الحرية ما يجعلها تعطي.

فرغت يدها مرارًا، لكنها لم تكن فقيرة.

فالفقر الحقيقي أن يمتلئ الكف ويظل القلب جائعًا، أما عائشة فقد كانت تفرغ كفها حتى يشبع قلبها بالله.

الفصل الثاني عشر

ما الذي بقي من عائشة؟

حين تجاوز نور الحجرة حدود الزمن

حين دُفن جسد عائشة رضي الله عنها في بقيع المدينة، لم تُدفن الحجرة التي صنعتها، ولم ينطفئ العقل الذي أيقظته، ولم يُغلق الباب الذي فتحته للأمة كي تدخل منه إلى حياة نبيها ﷺ.

غابت المرأة، ولكن بقي السؤال الذي كانت توقظه.

سكت الصوت، ولكن بقي المنهج الذي علّم الأمة كيف تصغي.

وطُويت صفحة العمر، غير أن أثرها توزّع في كتب الحديث، ومجالس الفقه، ومناهج الاستنباط، وذاكرة البيوت، وصلوات العابدين، وأسئلة النساء، ومراجعات العلماء. كأن عائشة رضي الله عنها لم تترك وراءها سيرةً تُروى فحسب، بل تركت طريقةً في رؤية الدين، وفهم الإنسان، وحراسة المعنى.

ولذلك لا يكون السؤال الأخير في سيرتها: متى ماتت؟

بل: ما الذي بقي منها بعدما ماتت؟

ذلك هو السؤال الذي يكشف مقدار حضورها الحقيقي؛ فبعض الناس يعيشون في زمانهم ثم ينتهون بانتهائه، وبعضهم يتركون فكرةً تعبر القرون، أما عائشة فقد تركت وعيًا كاملًا، تتداخل فيه المعرفة بالتقوى، والنقد بالمحبة، والشجاعة بالمراجعة، وحضور المرأة بعمق الرسالة.

بقي منها وجه النبي داخل البيت

عرف الصحابة رسول الله ﷺ في المسجد إمامًا، وعلى المنبر خطيبًا، وفي ساحات الجهاد قائدًا، وبين الوفود معلّمًا ومبلّغًا. لكن جانبًا واسعًا من هديه لم يكن يمكن أن يُعرف من المنبر، ولا أن يُرى في الطريق، ولا أن يُحفظ في مشهد عام.

كان لا بد من عين قريبة ترى النبي ﷺ حين يعود إلى بيته.

كيف يصلي في الليل؟

كيف يبدأ إذا دخل منزله؟

كيف يغتسل؟

كيف يصوم؟

كيف يعامل أهله؟

كيف يلاطف زوجاته؟

كيف يكون حين يمرض؟

كيف يوازن بين العبادة والراحة، وبين جلال النبوة ودفء الحياة الإنسانية؟

كانت عائشة هي العين التي حفظت هذا العالم الخفي.

وبفضلها لم تعرف الأمة نبيها في المواقف الكبرى وحدها، بل عرفته وهو يخصف نعله، ويكون في مهنة أهله، ويمازح زوجته، ويصغي إلى حديثها، ويدرك غيرتها، ويرفق بضعفها، ويطيل السجود في ليله، ثم يصبح في الناس بشوشًا قريبًا.

لقد حفظت عائشة للنبوة إنسانيتها من أن تتحول في الذاكرة إلى صورة بعيدة جامدة. وأثبتت أن عظمة النبي ﷺ لم تكن تظهر فقط حين يقود الجيوش أو يخاطب الجماهير، بل كانت تظهر أيضًا حين يغلق عليه باب بيته، فلا يتغير خُلقه، ولا تسقط رحمته، ولا ينفصل سلوكه الخاص عن رسالته العامة.

لولا روايتها، لعرفنا كثيرًا من أحكام الدين، لكننا كنا سنفقد شيئًا من نبضه داخل الحياة.

ولولا وصفها، لرأينا الرسول ﷺ في ضوء التاريخ، لكننا ما كنا لنراه بالوضوح نفسه في ضوء الحجرة.

وحين سُئلت عن خُلقه، لم تحتج إلى خطاب طويل؛ اختصرت حياة كاملة في كلمات قليلة:

«كان خُلُقه القرآن».

لم تقل إنه كان يقرأ القرآن فحسب، ولا إنه كان يبلّغه للناس فحسب، بل جعلت القرآن خُلقًا متحركًا في شخصه. وبذلك منحت الأمة أحد أعمق المفاتيح لفهم السنة: أن السنة ليست مجموعة أوامر منفصلة، بل هي القرآن حين يتحول إلى رحمة وعدل وصبر وحياء وحياة.

بقي منها عقل لا يهاب السؤال

لم تورّث عائشة الأمة أجوبةً محفوظة فقط؛ بل ورّثتها شجاعة السؤال.

كان يمكن لقربها من النبي ﷺ أن يجعلها تكتفي بالحفظ والتسليم الصامت، لكنها أدركت أن حسن التلقي لا يعني إغلاق باب الفهم. فكانت تسأل عن اللفظ، وعن المقصد، وعن سبب الحكم، وعن العلاقة بين النصوص، وعن موضع الخبر من كتاب الله.

لم يكن سؤالها اعتراضًا على الوحي، بل كان صورةً من صور الوفاء له؛ لأن النص الذي لا يُفهم قد يُنقل صحيحًا ويُستعمل خطأً.

ومن هنا نشأ فقه الاستدراك الذي ميّز مدرستها. فإذا رُوي خبر وظُن أن ظاهره يعارض أصلًا قرآنيًا، أعادت النظر في دلالته أو سياقه أو سبب وروده. وإذا نُقل حكم على وجه مطلق وكانت تعلم من حياة النبي ﷺ ما يقيّده، بيّنت ما شهدته. وإذا أخطأ السامع في فهم الواقعة، فرّقت بين ما قاله الرسول ﷺ وبين المعنى الذي حُمّل كلامه.

كان القرآن في عقلها ميزانًا، وكانت السنة حياةً متكاملة لا أخبارًا مبتورة.

ولهذا لم يكن استدراكها على بعض كبار الصحابة انتقاصًا من أقدارهم؛ فقد كانوا أهل فضل وصدق، لكن الراوي قد يحفظ جانبًا من الواقعة،

ويحفظ غيره جانبًا آخر. وقد يسمع الصحابي لفظًا دون أن يشهد سببه، بينما تكون عائشة قد عرفت السياق من داخل البيت.

العلم عندها لم يكن منافسةً بين الأشخاص، بل تعاونًا على استكمال الحقيقة.

وهنا بقي درسها الكبير: أن توقير العلماء لا يعني تعطيل النظر، وأن مراجعة القول ليست طعنًا في قائله، وأن المحبة لا تُلزم العقل أن يصمت إذا ظهر له الدليل.

كانت تعلّم الأمة أن الحقيقة أكبر من الأشخاص، وأن العالم الصادق لا يحرس مكانته، بل يحرس المعنى الذي اؤتمن عليه.

بقي منها منهج في جمع أطراف الحقيقة

لا تظهر عبقرية عائشة في كثرة ما حفظت فحسب، بل في الطريقة التي رتبت بها المحفوظ، وربطت بها النص بزمانه وسببه ومقصده.

لقد امتلكت ما يمكن تسميته بذاكرة السياق.

كانت تعرف أن الفعل النبوي قد يقع لعارض، وأن القول قد يوجّه إلى شخص بعينه لحال تخصه، وأن تعدد أفعال النبي ﷺ قد يدل على السعة لا على التناقض. ولهذا حفظت للأمة تنوع العبادة النبوية؛ فوصفت قيامه، وصيامه، واغتساله، واعتكافه، وحجه، وأحواله المختلفة، دون أن تحبس سنته في صورة واحدة.

وحين سألها سائل عن عبادة رسول الله ﷺ، لم تكن تمنحه حكمًا مجردًا فقط، كانت تفتح له نافذة على الإيقاع النبوي كله: ما كان يداوم عليه، وما كان يتركه رحمةً بأمته، وما كان يفعله في بعض الأحيان، وما كان يختلف باختلاف الحال.

وهذا المنهج يعلّم الأمة أن الفقه لا يُبنى من نص منفرد معزول عن بقية النصوص، وأن التشدد قد ينشأ أحيانًا من معرفة جزء واحد من السنة والجهل بسعتها.

من عرف حديثًا واحدًا قد يضيّق.

ومن جمع الهدي كله أبصر الرحمة التي تتخلله.

كانت عائشة تجمع أطراف الصورة، ثم تنظر إليها بعقل أدرك أن التشريع لا يعيش خارج الإنسان، وأن من مقاصد الهدي أن يقود البشر إلى الله، لا أن يحول حياتهم إلى عسر دائم.

بقيت مدرستها وإن غابت معلّمتها

لم تكن حجرة عائشة مجلسًا عابرًا ينفضّ بانتهاء اللقاء. لقد صنعت تلاميذ يحملون العلم بعدها، وينقلون طريقتها في الفهم إلى الأجيال.

دخل عليها عروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، ومسروق، وعطاء، وغيرهم من كبار التابعين. وحملت عنها عمرة بنت عبد الرحمن علمًا غزيرًا، حتى أصبحت من أوثق الناس في حديثها.

وهكذا تشكلت حول الحجرة شبكة علمية لا تقوم على القرابة وحدها، ولا على جنس المتعلم، ولا على منزلته الاجتماعية، بل على الأهلية والرغبة في المعرفة.

كان الرجال يسألونها.

وكانت النساء يدخلن عليها.

وكان كبار التابعين يرجعون إلى قولها.

ولم يكن الحجاب حائلًا دون وصول علمها، كما لم تكن خصوصية بيتها ذريعةً لعزلها عن الشأن العلمي. لقد صنعت من وراء الستر حضورًا ملأ الآفاق؛ فكأن الحجرة، على ضيق مساحتها، كانت أوسع من كثير من المؤسسات، لأن سعة المكان لا تُقاس بجدرانه، بل بمقدار ما يخرج منه من نور.

وكان تلاميذها لا يحملون عنها الأحاديث وحدها، بل يحملون دقة العبارة، وحسن الاستفهام، والقدرة على التفريق بين الرواية والرأي، وبين ما ثبت وما شاع، وبين ورع العالم وخوفه من القول بلا علم.

وقد قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه بمعنى ما خبرته طبقة الصحابة منها: ما أشكل علينا حديث فسألوا عائشة عنه إلا وجدوا عندها منه علمًا.

هذه الشهادة لا تصف ذاكرةً قوية فقط، إنها تصف مرجعيةً علمية. فالذي يُرجع إليه عند الإشكال ليس ناقلًا عاديًا، بل عالم يملك مفاتيح الجمع والترجيح والتفسير.

لم تطلب عائشة لنفسها كرسيًا ولا لقبًا. لم تؤسس سلطانها بالهيبة المصطنعة، وإنما صنعه الناس من حاجتهم إلى علمها.

وهذا أرسخ أنواع القيادة: أن تصبح مرجعًا لأن الحقيقة عندك أوضح، لا لأن السلطة في يدك أقوى.

بقي منها برهان على أهلية المرأة للمعرفة

لم تدخل عائشة تاريخ العلم بوصفها استثناءً يُتغنى به ثم يُغلق الباب بعده، بل دخلته حجةً قائمةً على أن الأهلية العلمية لا يحددها جنس الإنسان، وإنما يصنعها العقل والتقوى والتعلم والممارسة.

لم تكن عظمتها العلمية منحةً خطابية قُدمت لها لأنها امرأة، ولم يحتج الصحابة إلى شعار نظري كي يسألوها؛ كانوا يرجعون إليها لأن عندها علمًا يحتاجون إليه.

وهنا تكمن قوة النموذج.

إنه لا يقول إن المرأة ينبغي أن تُحترم مجاملةً، بل يقول إن المرأة قد تبلغ من الفقه مبلغًا يحتاج معه كبار الرجال إلى سؤالها. ولا يقول إن حضورها العلمي

زينة اجتماعية، بل يكشف أنه ضرورة لحفظ جوانب من الدين لا يستقل الرجال بمعرفتها.

لقد جعلت عائشة تعليم المرأة جزءًا من بناء الأمة. وكانت تستقبل أسئلة النساء في أدق شؤون الطهارة والعبادة والزواج والحياة الخاصة، فلا تسخر من السؤال، ولا تجعل الحياء ستارًا للجهل. وفي الوقت نفسه حفظت للحياء معناه النبيل: حياء لا يمنع التعلم، وعلم لا يهتك حرمة الإنسان.

ومن مدرستها خرجت راويات وفقيهات. ولم يعد وجود المرأة في سلسلة العلم أمرًا هامشيًا، بل صار جزءًا من بنية الرواية الإسلامية نفسها.

وهكذا بقيت عائشة تقول عبر القرون، دون حاجة إلى صيحة مرتفعة: إن الأمة التي تعطل عقل المرأة تفقد نصف ذاكرتها، وتحرم نفسها من نصف قدرتها على الفهم والتربية والشهادة.

لكنها تقول أيضًا: إن التمكين الحقيقي لا يبدأ من الألقاب، بل من التأهيل. لم تصنع مكانتها بالصوت وحده، وإنما بالعلم الطويل، والعبادة، والدقة، والقدرة على تحمل مسؤولية الكلمة.

بقي منها أدب الاختلاف

في حياة عائشة مواقف شديدة، واستدراكات صريحة، واجتهادات عامة، وتجربة سياسية أليمة. ومع ذلك لم يتحول الخلاف عندها إلى مذهب في التشفي، ولا إلى رغبة في محو فضل المخالف.

كانت تعرف أن الإنسان قد يختلف مع من يحبه، وأن الخطأ لا يُسقط جميع الفضائل، وأن الموقف الواحد لا يختصر تاريخ المرء كله.

وفي تجربتها مع الفتنة بقي للأمة درس بالغ العمق: أن صدق النية لا يعصم الاجتهاد من الخطأ، وأن شجاعة الدخول في الموقف ينبغي أن تتبعها شجاعة أكبر في مراجعته.

إن الموقف السياسي قد ينتهي بانتهاء ظرفه، لكن أخلاق التعامل معه تبقى للأجيال.

وحين ننظر إلى علاقتها بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، لا ينبغي أن نقرأها بعين الخصومات المتأخرة التي بنت هوياتها على تمزيق جيل الصحابة. لقد وقع الخلاف والقتال، واشتد الألم، لكن الفضل لم يُمحَ، والسابقة لم تُنكر، وحرمة أم المؤمنين لم تسقط، ومكانة علي لم تنتقص.

ومن هنا بقيت عائشة شاهدًا على أن التاريخ العادل لا يحتاج إلى ملائكة لا يخطئون، ولا إلى شياطين لا يحسنون. يحتاج إلى بشر عظماء قد يصيبون ويخطئون، ثم يكون صدقهم ظاهرًا في قدرتهم على الاعتراف بألم التجربة والتواضع أمام حكم الله.

إن تحويلها إلى رمز معصوم يظلم إنسانيتها.

وتحويلها إلى خصم سياسي دائم يظلم إيمانها وعلمها وسابقتها.

أما قراءتها في اكتمالها فتعلّمنا أن العظمة ليست غياب الخطأ، بل حضور التقوى حين ينكشف الخطأ، وأن المراجعة لا تهدم صاحبها، بل قد تكون من أشرف صفحات حياته.

بقي منها التحذير من اغتيال الإنسان بالشائعة

لم تبق حادثة الإفك مجرد قصة تبرئة تخص بيت النبوة؛ لقد تحولت إلى دستور أخلاقي في التعامل مع الأخبار والأعراض.

كلما تناقلت الألسنة خبرًا لم تتبينه، عادت عائشة في الذاكرة.

كلما استهان إنسان بكلمة يرسلها في الناس، وقفت آيات الإفك تسأله: كيف جعلت لسانك طريقًا لما لا تعلم؟

وكلما احتمى ناشر الشائعة بقوله: «إنما نقلت ما سمعت»، جاءه القرآن بالوصف الدقيق: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

لقد دفعت عائشة من قلبها ودموعها ثمن هذا الدرس، ثم أورث الله الأمة من محنتها ميزانًا يحمي كرامة الإنسان.

في زماننا، لم تعد الشائعة تحتاج إلى مجلس طويل كي تنتشر؛ تكفيها لمسة واحدة. لكن سرعة الوسيلة لم تغير طبيعة الخطيئة. فما زال الظن ظنًا، والبهتان بهتانًا، والعِرض حرمةً، والكلمة مسؤوليةً ولو اختفت وراء شاشة.

ومن هنا تبدو عائشة معاصرةً لكل زمن. محنتها القديمة تضع يدها على جرح الإنسان الدائم: رغبته في تصديق المثير قبل التثبت من الصحيح.

وبقي من الإفك سؤال أخلاقي لا يشيخ:

لماذا لم يظن المؤمنون بأنفسهم خيرًا؟

فالمجتمع لا يحميه القانون وحده، بل تحميه النفوس التي ترفض أن تجعل أعراض الناس مادةً للفضول والتسلية.

بقي منها العلم الذي يقود إلى السجود

كان يمكن لعلمها أن يمنحها شعورًا بالتفوق. فقد عاشت مع رسول الله ﷺ، ونزل الوحي في بيتها، وسألها الصحابة، وقصدها طلاب العلم. لكن كلما اتسعت معرفتها بالله ازدادت خوفًا منه.

لم تجعل العلم سلّمًا تتعالى به على الناس، بل طريقًا تتخفى به بين يدي الله.

كانت تعرف أن أخطر ما يواجه العالم أن يتحول علمه إلى حجاب عن ضعفه، وأن يظن أن معرفته بالنصوص تغنيه عن الافتقار إلى رب النصوص. لذلك

كان في حياتها ذلك الاتصال العميق بين الفقه والدمعة، وبين الرواية والصيام، وبين البيان وطول القيام.

لم يكن محرابها زاويةً منفصلة عن مدرستها؛ كان قلب المدرسة.

من هناك جاء صفاء نظرها.

ومن هناك جاء خوفها من التسرع.

ومن هناك جاءت قدرتها على مراجعة نفسها.

فالعقل إذا انفصل عن العبادة قد يصير بارعًا في الانتصار لذاته، أما عقل عائشة فكان يعود من مجالس العلم إلى الصلاة، ليقف بلا ألقاب أمام الله.

ولهذا بقي منها نموذج العالم العابد: عالم لا يكتفي بأن يعرف الحكم، بل يسأل عن أثره في قلبه؛ ولا يكتفي بأن يصحح للناس، بل يفتش عن موضع الخلل في نفسه.

لقد كانت دمعتها حارسةً لعقلها، كما كان عقلها حارسًا لفهمها.

بقي منها المال حين يتحول إلى رحمة

لم تبقَ أخبار سخائها حكايات عن أرقام كبيرة فرّقتها، بل بقي منها معنى أعمق: أن امتلاك المال شيء، وامتلاك المال للقلب شيء آخر.

كانت تأتيها الأموال فتخرج من يدها قبل أن تصنع لها مقامًا في النفس. لم يكن عطاؤها حركة استعراضية، كانت تنفق ثم تعود إلى بساطة الحجرة، وربما تذكرت في آخر النهار أنها لم تُبق لنفسها ما تفطر عليه.

كانت ترى المال في حاجات الناس قبل أن تراه في حاجتها.

وهذا الزهد لم يكن كراهيةً لنعم الله، بل تحررًا من سلطانها. كانت تعرف أن ما يُدخر قد يبقى في اليد، أما ما يُعطى لله فيبقى في المصير.

وقد اجتمع في سخائها ميراث بيتين: بيت أبي بكر الذي بذل ماله في نصرة الرسالة، وبيت النبوة الذي عاش خفيفًا من الدنيا واسعًا في الرحمة.

ومن عائشة بقي للأمة أن الزهد لا يعني الفقر المصطنع، ولا إهمال الجسد، ولا تحريم الطيبات، بل يعني أن تبقى الأشياء في موضعها: في اليد لا في القلب، وفي الخدمة لا في السيادة.

بقيت إنسانيتها

ربما كان أعظم ما بقي من عائشة أنها لم تصل إلينا تمثالًا باردًا.

وصلت إلينا امرأةً تحب وتغار، تفرح وتحزن، تسأل وتجادل، تصيب وتراجع، تتألم وتبكي، تعبد وتتصدق، وتقف في قلب أحداث أكبر من طاقة الفرد.

وهذه الإنسانية لا تنتقص من مقامها، بل تجعل أثرها أعمق.

لو قُدمت لنا بلا مشاعر، لما تعلمنا منها كيف يهذب الإيمان الغيرة.

ولو قُدمت بلا محنة، لما رأينا كيف يثبت القلب حين تضيق به الأرض.

ولو قُدمت بلا اجتهاد قابل للمراجعة، لما تعلمنا أن الرجوع إلى الحق عبادة.

ولو قُدمت بلا أسئلة، لما عرفنا أن العقل المؤمن لا يخاف البحث.

ولو قُدمت بلا دموع، لما فهمنا أن العلم مهما اتسع لا يلغي حاجة الإنسان إلى رحمة ربه.

إن القدوة التي لا نرى فيها إلا الكمال المتخيل قد تثير الإعجاب، لكنها لا تعلّمنا السير. أما عائشة فتعلمنا لأننا نراها وهي تعبر الطريق الإنساني نفسه: تتعرض للألم، وتواجه الالتباس، وتحمل مسؤولية الكلمة، ثم تعود في كل مرة إلى الله.

كانت عظمتها داخل إنسانيتها، لا خارجها.

بقيت جسرًا بين عوالم متباعدة

جمعت عائشة ما يظنه الناس متناقضًا.

جمعت بين قوة العقل ورقة القلب.

بين الجرأة والحياء.

بين الحضور العام وخلوة العبادة.

بين الفصاحة وطول الصمت بين يدي الله.

بين النسب الرفيع والجلوس لتعليم السائل البسيط.

بين شرف أمومة المؤمنين والتواضع الذي يكره تزكية النفس.

بين حفظ الماضي وصناعة المستقبل.

كانت جسرًا بين النص والحياة؛ لأنها لم تروِ الكلام مجردًا من ظروفه.

وجسرًا بين النبوة والبيت؛ لأنها كشفت كيف يتحول الوحي إلى سلوك يومي.

وجسرًا بين علم الرجال وعلم النساء؛ لأن الجميع دخلوا مدرستها.

وجسرًا بين الخطأ والتوبة؛ لأنها لم تجعل المراجعة هزيمة.

وجسرًا بين الدنيا والآخرة؛ لأن المال مرّ بيدها ولم يسكن قلبها.

لهذا يصعب أن تُختصر في لقب واحد.

فإذا قلنا: راوية، ضاق اللقب عن فقهها.

وإذا قلنا: فقيهة، ضاق عن بلاغتها.

وإذا قلنا: عابدة، أغفلنا حضورها العام.

وإذا قلنا: قائدة، فاتنا محرابها.

وإذا قلنا: زوج النبي ﷺ، كان ذلك أشرف ألقابها، لكنه لا يغنينا عن رؤية ما صنعته بنفسها من علم وتعليم واجتهاد.

كانت أم المؤمنين، لكنها كانت أيضًا إحدى صانعات وعي المؤمنين.

ليست ذكرى للنساء وحدهن

يخطئ من يجعل عائشة رضي الله عنها نموذجًا للمرأة فقط، كما يخطئ من يروي سيرتها دون أن يرى دلالتها للنساء.

هي قدوة للمرأة في قدرتها على التعلم والتعليم والحضور وتحمل المسؤولية. لكنها في الوقت نفسه قدوة لكل عالم في دقة الفهم، ولكل طالب في شجاعة السؤال، ولكل قائد في وجوب مراجعة القرار، ولكل عابد في اتصال العلم بالخشية، ولكل صاحب مال في تحرير قلبه من الملكية، ولكل مبتلى في الصبر حتى يأتي فرج الله.

ليست سيرتها ملفًا في تاريخ النساء، بل فصلًا مؤسسًا في تاريخ العقل الإسلامي.

وإذا كان في حياتها برهان للمرأة على إمكان بلوغ القمة، ففيها أيضًا تحذير للرجل من أن يظن العلم حكرًا عليه. فقد جلس رجال من أجلّ أهل زمانهم بين يدي علمها، ولم يروا في السؤال منها نقصًا؛ لأن الذي يطلب الحقيقة لا يستكبر عن بابها أيًا كان صاحب الباب.

وهذه واحدة من أنضج صور المجتمع المؤمن: أن تُقدَّم الكفاءة على الوهم، والعلم على العادة، والتقوى على دعاوى التفوق.

ماذا تقول لنا اليوم؟

تقول عائشة للعالم الذي امتلأ بالمعلومات وقلّ فيه الفهم: لا يكفي أن تنقل؛ عليك أن تتبين.

وتقول لطالب العلم الذي يحفظ الأقوال ولا يعرف سياقاتها: اجمع أطراف الهدي قبل أن تحكم.

وتقول لمن جعل الخلاف ذريعةً لإسقاط الناس: ناقش القول، واحفظ للمخالف فضله.

وتقول لمن أخطأ في اجتهاده: لا تجعل مكانتك سجنًا يمنعك من المراجعة.

وتقول للمرأة التي أُريد لها أن تصدق أن الحياء يعني الصمت: كان حياؤك النبيل طريقًا إلى العلم، لا بابًا للجهل.

وتقول للمجتمع الذي يستهين بالشائعة: قد تُسقط كلمة عابرة قلبًا بريئًا، ويكون ما تراه هينًا عند الله عظيمًا.

وتقول للغني: ما يبقى لك ليس ما أمسكت، بل ما أرسلت أمامك.

وتقول للعالم: إذا لم يقدك علمك إلى الخشية، فقد عرفت الطريق ولم تصل.

وتقول للقائد: النية الصالحة لا تعفيك من حساب النتائج.

وتقول لكل إنسان أثقلته لحظة من ماضيه: لستَ أسير لحظة واحدة؛ تستطيع أن تحوّل الألم إلى بصيرة، والخطأ إلى تواضع، والمحنة إلى نور يهدي من بعدك.

الحجرة التي اتسعت للأمة

كانت حجرة عائشة صغيرةً في مساحتها، بسيطةً في أثاثها، قريبةً من مسجد رسول الله ﷺ. لم تكن فيها خزائن الكتب، ولا مقاعد الدرس، ولا مظاهر المؤسسات الكبرى.

ومع ذلك خرج منها علم عبر القارات والقرون.

خرج منها وصف صلاة النبي ﷺ وقيامه وصيامه.

وخرج منها فقه الأسرة والطهارة والعبادة.

وخرج منها منهج نقد الرواية وفهم السياق.

وخرج منها أدب السؤال والاستدراك.

وخرج منها صوت المرأة العالمة.

وخرجت منها دموع العابد وخبز الفقير وكرامة المظلوم.

لقد أثبتت الحجرة أن الأفكار العظيمة لا تحتاج دائمًا إلى أمكنة عظيمة، بل تحتاج إلى قلب صادق، وعقل حي، ورسالة تتجاوز صاحبها.

لم تكن جدرانها تحيط بعائشة؛ كانت تحيط بنواة مدرسة ستتسع حتى تشمل الأمة.

وحين رحلت أم المؤمنين، بقي مكانها فارغًا في المدينة، لكن أثرها ملأ العالم الإسلامي. وظلت الأجيال تدخل حجرتها من خلال الرواية: تسألها

فتجيب، وتستشكل فتبيّن، وتختلف فتردها إلى القرآن، وتضعف فتروي لها كيف كان رسول الله ﷺ، وتغتر بعلمها فتراها قائمةً تبكي بين يدي الله.

هكذا انتصرت الحجرة على الزمن.

وهكذا غلب الصوت الهادئ ضجيج العصور.

وهكذا بقيت عائشة رضي الله عنها: لا ذكرى ساكنة في كتاب، بل عقلًا يسائل، وقلبًا يخشع، وضميرًا يراجع، ومدرسةً تعلم الأمة أن أعظم الناس ليس من لا يعرف الضعف، بل من يجعل من ضعفه طريقًا إلى الله، ومن علمه خدمةً للحق، ومن حياته نورًا يبقى بعد الرحيل.

لم تكن عائشة صفحةً قريبةً من النبوة فحسب.

كانت إحدى الطرق التي وصلت بها النبوة إلينا.

حين بقيت الحجرة مضيئة

لم تكن سيرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رحلةَ امرأةٍ عاشت إلى جوار رجل عظيم، ثم استمدت مكانتها من قربها منه وانتهى أثرها بانتهاء ذلك القرب؛ بل كانت سيرةَ عقلٍ دخل بيت النبوة مستعدًّا للتلقي، فخرج منه حاملًا بعض أثمن ما تحتاج إليه الأمة لفهم نبيها ودينها ونفسها. كان شرف الزوجية بابها الأول، غير أن العلم والعبادة والتعليم والاجتهاد هي الأبواب التي عبر منها أثرها إلى القرون.

لقد عاشت بالقرب من الوحي، لكنها لم تتعامل مع هذا القرب بوصفه امتيازًا اجتماعيًا يمنحها مكانةً ساكنة؛ بل بوصفه أمانةً ثقيلة تفرض عليها أن تحفظ، وتسأل، وتفهم، وتبيّن، وتدافع عن المعنى إذا أسيء فهمه. رأت من حياة رسول الله ﷺ ما لم يره أهل المنبر والسوق ومجالس الوفود؛ رأته حين يعود من أعباء الأمة إلى بيته، وحين يقوم في جوف الليل، وحين يمرض، وحين يبتسم، وحين يرفق، وحين يكون في مهنة أهله، وحين تتحول النبوة في الحجرة إلى رحمة يومية تمسّ تفاصيل الإنسان الصغيرة.

ولذلك لم يكن ميراث عائشة مجموعةً من الأخبار المنزلية، بل كان استكمالًا لصورة النبوة نفسها. فقد حفظ الرجال للأمة كثيرًا مما جرى في المسجد والميدان والطريق، وحفظت هي جانبًا من ذلك العالم الذي لا تفتح أبوابه إلا

للزوجة القريبة، ذات القلب المحب والعين الدقيقة والذاكرة النافذة. ولو غاب هذا الجانب، لعرفت الأمة من جلال النبوة كثيرًا، ولكنها كانت ستفقد شيئًا من دفئها؛ ولعرفت أحكامها العامة، لكنها كانت ستجهل بعض أسرار تجسدها في البيت والعاطفة والعبادة والخلوة.

كانت عائشة رضي الله عنها ذاكرةَ الحجرة، غير أنها لم تكن ذاكرةً صامتة. كانت تحفظ ثم تفهم، وتسمع ثم تسأل، وتنقل ثم تضع الخبر في سياقه، وتستقبل الرواية ثم تعرض معناها على محكم القرآن وكليات الشريعة وما خبرته من هدي رسول الله ﷺ. ومن هنا لم تكن عظمتها في كثرة ما روت وحدها، بل في نوع العقل الذي كان يقف خلف الرواية.

لقد علمتنا أن حراسة الوحي لا تكون بحفظ ألفاظه فحسب، بل بحمايتها من الفهم المبتور، والاستعمال المتعسف، والنقل الذي يفصل الواقعة عن سببها، والجزء عن كليته، والنص عن روحه ومقصده. وعلمتنا أن تعظيم الصحابة لا يقتضي أن نجعل الفهم البشري معصومًا، وأن الاستدراك العلمي ليس انتقاصًا، وأن العالم قد يراجع عالمًا أكبر منه أو أسبق منه ما دام الدليل غايته والحق مقصده.

كان استدراكها خلقًا علميًا قبل أن يكون قدرةً ذهنية؛ لأنها لم تكن تريد أن تنتصر لنفسها، بل أن ينتصر المعنى. وهذه هي المسافة الفاصلة بين جدال

الأنا وحوار العلم: الأول يبحث عن الغلبة، والثاني يبحث عن الحقيقة؛ الأول يزداد صخبًا كلما ضعف دليله، والثاني يزداد تواضعًا كلما اتسعت معرفته.

وفي شخصيتها التقت فصاحة العرب بنور الوحي. لم تكن لغتها زينةً لفظيةً تغطي خواء المعنى، بل كانت بيانًا يصدر عن عقل رتّب الفكرة قبل أن ينطق بها. عرفت الشعر والأنساب وأخبار العرب، وأبصرت أحوال الأجساد والنفوس، لكن معارفها لم تبق جزرًا متناثرة؛ جمعها ذكاءٌ قادر على رؤية الصلات الخفية بين الإنسان والنص، وبين الخبر والحكم، وبين الكلمة وأثرها في القلب.

كانت تعرف أن البيان مسؤولية، وأن الكلمة قد تهدي وقد تفتن، وقد تنصف وقد تظلم، وقد ترفع بريئًا أو تدفع به إلى قاع المحنة. ولم تعرف امرأةٌ في جيلها قسوة الكلمة المفترية كما عرفتها عائشة يوم الإفك؛ حين أصبحت سيرتها الطاهرة مادةً تتداولها الألسنة، وهي تنتظر من فوق السماوات كلمة الفصل.

في تلك المحنة لم تكن آلامها شأنًا شخصيًا خالصًا. أراد الله أن تتحول دموعها إلى تشريع، ومرضها إلى بصيرة، وصمت السماء المؤقت إلى تربية لأمة كاملة. نزلت براءتها قرآنًا يُتلى، لكن القرآن لم يبرئها وحدها؛ بل كشف للمؤمنين كيف تبدأ الشائعة، وكيف تتلقف الألسنة ما لم تحط به القلوب علمًا، وكيف يستخف الناس بكلمة تكون عند الله عظيمة.

خرجت عائشة من الإفك مبرّأة، وخرجت الأمة بدستور يحمي الأعراض، ويؤسس للتثبت، ويطالب المجتمع ألا يمنح الشر شرف الإصغاء إليه. وبقيت محنتها مرآةً لكل زمان تنتشر فيه الأكاذيب أسرع من الحقائق، ويصبح فضول الناس وقودًا لاغتيال الأبرياء. وكأن آيات الإفك لا تزال تسأل كل من ينقل خبرًا لم يتبينه: ماذا لو كنت أنت الذي تقف وحيدًا خلف هذه الشائعة، تنتظر أن يستيقظ ضمير المجتمع؟

ثم دخلت عائشة زمن الفتنة، لا امرأةً تطلب مُلكًا ولا زعامة، بل أمًّا للمؤمنين رأت أن عليها مسؤوليةً تجاه الدم الذي سُفك والصف الذي تصدع. اجتهدت، وتحركت، وأحاطت باجتهادها ظروفٌ بالغة التعقيد، ثم انتهت التجربة إلى ما لم تكن تريده من قتال وألم.

هنا لا تكتمل العدالة بتمجيد لا يرى الخطأ، ولا بإدانة تمحو النية والفضل. تكتمل حين نقول إن الاجتهاد الصادق قد يخطئ، وإن شرف صاحبه لا يجعله معصومًا من تقدير غير صائب، وإن الخطأ لا يبتلع تاريخًا كاملًا من العلم والتقوى والسابقة.

ولعل الصفحة الأعمق في تجربتها العامة لم تكن لحظة خروجها، بل قدرتها بعد ذلك على مراجعة ما وقع، وحزنها عليه، ورغبتها في ألا تتحول مكانتها إلى حصن يحميها من محاسبة نفسها. فقد امتلكت شجاعة الموقف، ثم امتلكت ما هو أشق: شجاعة النظر إلى نتائج الموقف.

ما أسهل أن يقدم الإنسان على القرار حين تمتلئ نفسه باليقين، وما أصعب أن يعود بعد انقشاع الغبار ليفحص يقينه القديم، ويعترف بأن النية النبيلة لم تكن كافيةً لحماية الطريق من العواقب. وهكذا منحت عائشة الأمة درسًا لا يقل أهميةً عن علمها: أن الرجوع عن الاجتهاد ليس سقوطًا، وأن المراجعة ليست هزيمة، وأن عظمة الإنسان لا تكمن في ادعاء الصواب الدائم، بل في بقاء ضميره حيًا بعد الخطأ.

غير أن كل ذلك الحضور العلمي والعام لم يكن لينفصل عن السر الخفي الذي غذّاه: العبادة.

وراء صوت الفقيهة كان قلب العابد.

ووراء جرأة المستدركة كانت خشية الواقفة بين يدي الله.

ووراء قوة المتكلمة كانت دمعة امرأة تعرف أن كل الكلمات ستسكت يومًا، ولن يبقى إلا حكم الله.

كانت تصلي وتصوم وتتلو، وتقف عند الآية فتكررها؛ لأن القرآن عندها لم يكن مادةً للاستشهاد العلمي وحده، بل خطابًا يتنزل كل مرة على القلب. كانت تعرف من أسباب النزول والسياقات والأحكام ما تعرف، غير أن المعرفة لم تنزع عن الآية رهبتها، بل زادتها حضورًا في النفس. فالعالم الحق لا يعتاد كلام الله حتى يبرد في قلبه، وإنما كلما اتسع فهمه ازداد شعوره بأن وراء ما أدركه آفاقًا لا يبلغها.

وفي عطائها ظهر المعنى نفسه. كانت الأموال تأتي إلى يدها فلا تجد في قلبها موضعًا تستقر فيه، تمر سريعًا إلى الفقراء والمحتاجين، كأنها تعرف أن المال الذي يبقى حقًا هو المال الذي يغيب عن اليد ليظهر في الميزان. لم يكن زهدها رفضًا للدنيا، وإنما وضعًا لها في حجمها الصحيح: نعمة تُشكر، وأمانة تُؤدى، ووسيلة لا تستحق أن تتحول إلى غاية.

هكذا تكاملت أبعادها التي قد تبدو متباعدة: فقهها لم ينفصل عن خشيتها، وبلاغتها لم تنفصل عن صدقها، وشجاعتها لم تنفصل عن غيرتها الدينية، وسخاؤها لم ينفصل عن معرفتها بالآخرة، ومراجعتها لم تنفصل عن تواضعها بين يدي الله. كانت شخصيةً واحدةً لا مجموعة أدوار، لأن الوحي حين يعيد بناء الإنسان لا يجمّل جانبًا ويترك سائر الجوانب للفوضى، بل يصنع وحدةً داخلية يصبح فيها العقل خادمًا للحق، والقلب حارسًا للعقل، والعمل شاهدًا على الاثنين.

إن عائشة رضي الله عنها لا تحتاج إلى أن نحولها إلى صورة متخيلة منزّهة عن طبائع البشر حتى نعظمها؛ فالله رفعها وهي إنسانة تحب وتغار، وتفرح وتحزن، وتسأل وتناقش، وتجتهد وتصيب وتراجع. ولم تكن غيرتها نقصًا يحجب فضلها، بل طبيعةً إنسانية هذبها الإيمان. ولم تكن محنتها عارًا يثقل سيرتها، بل صارت بابًا لتطهير المجتمع. ولم يكن اجتهادها الذي ندمت على مآلاته نهاية مكانتها، بل كشف أن قلبها كان أكبر من أن يسجن نفسه في المكابرة.

إن القدوة لا تكون قريبةً من الإنسان إلا إذا رأى فيها طريق التحول، لا صورةً يستحيل الاقتراب منها. وعائشة تفتح لنا هذا الطريق: من الذكاء إلى العلم، ومن العلم إلى الخشية، ومن المحنة إلى البصيرة، ومن الخطأ إلى المراجعة، ومن امتلاك الدنيا إلى التحرر من سلطانها.

كانت امرأة، لكن أثرها لم يكن هامشًا في تاريخ الرجال.

وكانت خلف ستر، لكن صوتها بلغ الآفاق.

وكانت تسكن حجرةً ضيقة، لكن الحجرة اتسعت لأسئلة أمة.

وكانت زوجةً محبة، لكنها لم تذب في اسم زوجها حتى تفقد فرادتها؛ بل ربّاها رسول الله ﷺ على أن تكون عقلًا حاضرًا وشخصيةً مسؤولة، ثم تركها من بعده لتؤدي للأمة ما حفظته عنه.

ولذلك فإن الحديث عن عائشة ليس حديثًا عن حقبة أغلقت أبوابها، بل عن أسئلة لا تزال مفتوحة: كيف نجمع بين تعظيم النص وحرية السؤال؟ كيف نختلف دون أن نتحول إلى خصوم للحق؟ كيف نمنح المرأة أهلية العلم دون أن نحولها إلى شعار؟ كيف نواجه الشائعة قبل أن تفتك بالبريء؟ كيف يحفظ العالم قلبه من كبر المعرفة؟ وكيف يراجع القائد قراره حين تكشف النتائج ما لم تكشفه النيات؟

في كل سؤال من هذه الأسئلة شيء من صوت عائشة.

وحين نتعلم امرأةً فلا يمنعها الحياء من أن تسأل، فثمة أثر من عائشة.

وحين يعرض فقيه الرواية على القرآن، ويجمع طرقها، ويفهم سياقها، فثمة أثر من عائشة.

وحين يرفض مؤمن أن ينقل تهمةً بلا برهان، فثمة أثر من محنتها.

وحين يراجع قائدٌ اجتهاده ولا يستكبر على الاعتراف، فثمة قبس من شجاعتها.

وحين يفرغ غني يده من المال وقلبه من التعلق به، فثمة معنى من زهدها.

وحين يقف عالم في الليل باكيًا، وقد ترك ألقابه خارج محرابه، فثمة شيء من مدرستها.

لم تنته عائشة حين وُضعت في قبرها؛ لأن الذين يصنعون وعي الأمم لا تنتهي حياتهم بسكون أجسادهم. لقد توزع صوتها في آلاف المجالس والكتب والقلوب، وبقيت الحجرة مفتوحةً لكل من يريد أن يعرف كيف يفكر العقل حين يلامسه الوحي، وكيف يقوى القلب حين يسكنه اليقين، وكيف يصبح الإنسان ـ بصدقه وعلمه وتوبته ـ أكبر من عمره.

سلامٌ على عائشة يوم دخلت بيت النبوة متعلّمةً محبة.

وسلامٌ عليها يوم خرج علمها إلى الأمة فقيهةً معلّمة.

وسلامٌ عليها يوم امتحنها الإفك فبرأها الله من فوق سبع سماوات.

وسلامٌ عليها يوم حملت هم الأمة، ويوم آلمتها عاقبة الاجتهاد، ويوم عادت إلى محرابها بقلب أعرف بضعفه وأشد افتقارًا إلى ربه.

وسلامٌ على يدها وهي تمنح الفقير ما أبقت الدنيا لها.

وسلامٌ على عقلها وهو يحرس المعنى من الاختزال.

وسلامٌ على دمعتها وهي تمنع العلم أن يتحول إلى غرور.

رضي الله عن أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر، وأرضاها، وجزاها عن رسول الله ﷺ وعن أمته خير الجزاء.

لقد انطفأ سراج الحجرة منذ قرون، لكن النور الذي أشعله الوحي فيها لم ينطفئ.

وما تزال الأمة، كلما أرادت أن ترى العلم خاشعًا، والذكاء مؤمنًا، والمرأة عالمةً، والشجاعة مسؤولةً، والإنسان عظيمًا دون أن يكون معصومًا، تجد عائشة رضي الله عنها واقفةً عند باب تلك الحجرة الصغيرة، تحمل في قلبها ذاكرة النبوة، وتفتح للعابرين طريقًا إلى الفهم.

فلم تكن عائشة راويةً حفظت لنا بعض ما قاله الرسول ﷺ فحسب؛ بل كانت حياةً كاملةً شرحت لنا كيف يصنع الرسول ﷺ الإنسان.